أكثر الرجال حكمة

سـقراط

أكثر الرجال حكمة
سـقراط

يوسف أبو الحجاج الأقصري

تقديم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وبعد

هذا إصدار متميز عن رائد من رواد الفلسفة العالمية، إنه الفيلسوف اليوناني الكلاسيكي (سقراط) المولود في أثينا عام 469 ق.م وتوفي عام 399 ق.م منتحرًا انتحار قسريًا بتناول شراب نبات الشوكران السام بعد محاكمة غير عادلة.

- لم يترك (سقراط) كتابات أو مخطوطات لأفكاره وفلسفته وكل ما نعرفه عنه كان من خلال تلاميذه ورواياتهم عنه، وتعتبر حوارات أفلاطون من أكثر الروايات شمولية وإلمامًا بشخصية (سقراط).

- وبحسب وصف شخصية (سقراط) كما ورد في حوارات (أفلاطون) فقد أصبح سقراط مشهورًا بإسهاماته في مجال علم الأخلاق وإليه تنسب مفاهيم السخرية السقراطية والمنهج السقراطي والذي لا يزال مستخدمًا في مجال واسع من النقاشات،

كما أنه نوع من (البيداجوجيا) أي علم التربية التي تطرح مجموعة من الأسئلة ليس بهدف الحصول على إجابات فردية فحسب وإنما كوسيلة لتشجيع الفهم العميق المطروح عن الموضوع.

– ويمكن القول إن (سقراط) الذي وصفه (أفلاطون) هو مَنْ قام بإسهامات مهمة وخالدة لمجالات المعرفة والمنطق وقد ظل تأثير أفكاره وأسلوبه قويًا حيث صارت أساسًا للكثير من أعمال الفلسفة الغربية التي جاءت بعد ذلك.

– كان سقراط دائم السعي وراء الحقيقة والاهتمام بحل مشاكل الحياة وكان مهتمًا بجعل مشاكل الحياة المعقدة أسهل على الفهم ولتحقيق هذه الغاية كان مضطرًا إلى مناقشة الكثير من المعتقدات والتقاليد المسلم بها وأخيرًا حُكم عليه بتهمة إفساد الشباب من خلال أفكاره ومعتقداته، نعم حكم عليه بتهمة إفساد الشباب من خلال أفكاره ومعتقداته، نعم حكم عليه بالموت بتناول جرعة السم من شراب الشوكران السام.

– تعلم (سقراط) أسس الفلسفة على يد الفيلسوف (بارمينيدس) وطور نفسه بنفسه وكل ما وصل إلينا عن سقراط كان من خلال مصادر ثلاث هي حوارات كل من (أفلاطون) و(زينوفون) وهما من

أنصار سقراط ومسرحيات (أريستوفانيس) التي وصفته بطريقة ساخرة. لقد عاش سقراط في الفترة الانتقالية فيما بين ازدهار الحكم الأثيني وانهياره وحينما هزم أمام مدينة أسبرطة وحلفائها في معركة البلوبونيز وفي الوقت الذي سعت فيه مدينة أثينا وراء الاستقرار واستعادة مكانتها بعد الهزيمة المخزية التي لحقت بها كانت الديمقراطية بالنسبة للشعب صورة فعالة للحكم ولكن سقراط كان كثير الانتقاد لتلك الديمقراطية مما جعل الحكومة تنفذ تلك المحاكمة الصورية لأفكاره وتحكم عليه بالإعدام وقد فسر بعض تلاميذه المحاكمة التي عقدت له كتعبير عن صراع سياسي محتدم.

– لقد أثنى (سقراط) في حوارات عديدة على (أسبرطة) وهي المنافس الرئيسي (لأثينا) سواء كان ذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة ومع ذلك لقد مثل موقفه الناقد كناقد اجتماعي وأخلاقي أكثر المناحي التي تجلت فيها الانتقادات والإساءات التاريخية التي أبداها سقراط نحو المدينة فبدلاً من أن يؤيد الوضع الراهن ويقبل بسيادة الأعمال اللاأخلاقية في منطقته عمل (سقراط) على تقويض المفهوم الجماعي الذي انتهجه الآخرون والذي شاع للغاية في زمانه ألا وهو (إن القوة تصنع العدل)، ويشير (أفلاطون) إلى أن (سقراط)

بوصفه لموضوع (ذبابة الخيل في المدينة) فذبابة الخيل تلدغ الخيل فتحثها على القيام بفعل ما، وبالمثل كان (سقراط) يحث أثينا على اتخاذ فعل ما عن طريق لدغها بالانتقادات وهو ما أرَّق الحكام لأنه كان يحثهم دائمًا بأنه يجب عليهم مراعاة تحقيق العدل والسعي وراء الخير فالأمر بلغ أن محاولاته لتغيير مفهوم العدل الذي كان ينهجه الأثينيون كان السبب وراء الحكم عليه بالإعدام.

مع ذلك الفيلسوف المعلم الذي دفع حياته ثمنًا لحرية رأيه تدور سطور هذا الإصدار الذي أتمنى أن يكون إضافة جديدة للمكتبة.

والله الموفق والمستعان

المؤلف

يوسف أبو الحجاج الأقصري

الفصل الأول

نبذة عن حياة سقراط وأشهر أقواله

نبذة عن حياة سقراط

سقراط أكثر الرجال حكمة في العالم هكذا قال عنه معاصروه وهو فيلسوف يوناني كلاسيكي يعتبر أحد مؤسسي الفلسفة الغربية.

– لم يترك سقراط كتابات وكل ما نعرفه عنه مستقى من خلال روايات تلاميذه عنه،ومن بين ما تبقى لنا من العصور القديمة.

– تعتبر حوارات (أفلاطون) من أكثر الروايات شمولية وإلمامًا بشخصية سقراط ويُقال إنه تنسب إليه مفاهيم المنهج السقراطي الساخر وهو لا يزال المستخدم في مجال واسع من النقاشات كما أنه نوع من البيولوجيا (علم التربية) التي بحسبها تطرح مجموعة من الأسئلة ليس بهدف الحصول على إجابات فردية فحسب وإنما كوسيلة لتشجيع الفهم العميق للموضوع المطروح.

– إن سقراط الذي وصفه أفلاطون هو مَنْ قام بإسهامات مهمة وجادة وخالدة لمجالات المعرفة والمنطق، وقد ظل تأثير أفكاره وأسلوبه قويًا حيث صارت أساسًا للكثير من أعمال الفلسفة الغربية التي جاءت بعد ذلك.

– قال عنه الفلاسفة القدماء أنه مثلاً أعلى، جهبذا في الفلسفة، قديسًا، عمل في الفن وقتًا قصيرًا وتحول إلى الفلسفة وثبت من فورة شهرته كمفكر أنه على جانب كبير من الأصالة والإبداع، وهو الذي ابتدع طريقة للتحقيق والتعليم لا زالت مستخدمة إلى يومنا هذا ألا وهي طرح سلسلة من الأسئلة تهدف إلى الحصول على تعبير واضح ومتماسك عن شيء يفترض أنه مفهوم ضمنا من كل الكائنات البشرية العاقلة.

– كان سقراط دائم السعي وراء الحقيقة والاهتمام بجعل مشاكل الحياة المعقدة أسهل على الفهم، ولتحقيق هذه الغاية كان مضطرًا إلى مناقشة الكثير من المعتقدات والتقاليد المسلم بها، الأمر الذي أكسبه الكثير من العداءات.

– في حياة (بيريكليس) كان سقراط في أمان، لأن هذا السياسي الكبير كان معجبًا به ولكن بعد وفاته شرع أعداء سقراط في الضغط عليه لكي يسحب كل ما قاله، ولكن لم يقبل ذلك، واستمر بالعمل في الخط الذي رسمه وما كان يعتقد أن الحاجة تدعو إلى مناقشته.

– وأخيرًا حُكم عليه بتهمة إفساد الشبيبة، وحُكم عليه بالموت بتجرع سم الشوكران القاتل.

وردت التفاصيل الخاصة بحياة سقراط من ثلاثة مصادر حديثة وهي حوارات كل من أفلاطون وزينوفون (وهما من أنصار سقراط) ومسرحيات أريستوفانيس التي وصفت سقراط بأنه مهرجا يعلم تلاميذه كيف يتملصون من الديون.

- اسم والد سقراط هو (سوفرونيسكوس) واسم والدته هو (فيناريت) ويقال إنها كانت تعمل (قابلة) أي (داية).

- وصُف (سقراط) بأن شكله كان غير جذاب، وأنه كان قصير القامة، وأنه تزوج من (زانثيبي) التي كان تصغره في السن بكثير وأنجبت منه ثلاثة أبناء هم (لامبروكليس) و(سوفرونيسكوس) و(مينيكسينوس).

- انتقده صديقه (كريتو) لتخليه عن أبنائه عندما رفض محاولة الهروب قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه.

- لم يبدو واضحًا كيف كان (سقراط) يكسب قوت يومه، ويبدو أن النصوص القديمة أشارت إلى أن سقراط لم يكن يعمل!، وكان يقول إنه يكرس نفسه للشيء الذي يعتبره أهم فن أو مهنة وهو مناقشة الفلسفة وقيل إنه كان يتقاضى مالاً مقابل تعليم الطلاب وإدارة مدرسة سوفسطائية مع (كريفون) في حين أنه ورد في حواري (دفاع سقراط) و(المادية) وفي رواية (زينوفون) إنكار سقراط الصريح

لقبوله أي أموال مقابل تعليم الطلاب،

- في حوار دفاع سقراط على وجه الخصوص استشهد سقراط بفقره كبرهان على كونه ليس مدرسًا.

- يقال إن (سقراط) امتهن مهنة (نحت الصخور) عن والده ولقد كان هناك اعتقاد في العصور القديمة بأن سقراط نحت تماثيل ربات القدر الثلاث التي ظلت موجودة بالقرب من معبد (أكروبوليس) حتى القرن الثاني بعد الميلاد، ولكن لم يصدق العلم الحديث على صحة هذا الاعتقاد.

- تشير العديد من حوارات أفلاطون إلى الخدمة العسكرية التي أداها (سقراط)، ويقول سقراط إنه خدم في الجيش الأثيني خلال ثلاث معارك هي (بوتيديا) و(أمفبوليس) و(ديليوم). وفي حوار (المادية) وصف (الكيسيياديس) شجاعة وبسالة (سقراط) في معركتي (بوتيديا) و(ديليوم)، وذكر كيف أن سقراط أنقذ حياته في معركة (بوتيديا) كما ورد الأداء الرائع الذي أداه (سقراط) في معركة (ديليوم) ضمن حوار (لاكاس) أو الشجاعة.

- في حوار دفاع سقراط يقارن سقراط بين خدمته العسكرية ومعاناته التي واجهها في قاعة المحكمة ويقول إنه إذا كان هناك في هيئة المحلفين مَنْ يعتقد أنه يجب أن ينسحب ويتخلى عن الفلسفة

فينبغي لهذا الشخص أن يفكر أيضًا في أنه لابد للجنود أن تنسحب من المعركة عندما يبدو لهم أنهم سيقتلون فيها.

- كان سقراط عضوًا في مجلس الشيوخ اليوناني وكان عضوا في مجلس المحاكمة التي شهدت إعدام الجنرالات الذين شاركوا في معركة (أرجنوس) لأنهم تخلوا عن القتلى والناجين من السفن الغارقة من أجل مطاردة الأسطول الأسبارطي المنهزم للحاق به وكان سقراط أحد الأعضاء الرئيسيين بالمجلس وعارض المطلب غير الدستوري الذي اقترحه (كاليكسنيس) بعقد محاكمة جماعية لإدانة جميع الجنرالات الثمانية، وفي آخر الأمر رفض (سقراط) أن يذعن للتهديدات التي وجهت إليه أن يتم حتفه بالسجن أو أن يتم اتهامه بالتقصير، وأعاق سقراط التصويت الجماعي الذي تم لاحقًا وشهد إدانة الجنرالات والحكم عليهم بالإعدام.

- سعت حكومة الطغاة الثلاثين أن يطلبوا من سقراط وأربعة آخرين أن يحضروا (حاكم مدينة سلاميز) من منزله لتنفيذ حكم إعدام غير عادل عليه، ورفض سقراط ذلك بهدوء وبشدة ولم يحل ذلك دون إعدام هذا الحاكم سوى الإطاحة بحكم الطغاة الثلاثين.

- وحين حوكم سقراط وتمت إدانته قال لن أرفض فلسفتي إلى أن ألفظ النفس الأخير.

فلسفة سقراط

كانت الفلسفة قبل سقراط موجهة إلى الكون وإيجاد السبب الأول الذي نشأ عنه واتخذ منه مظاهره المختلفة ثم جاء السوفسطائيون الذين هدموا البحث الموضوعي ووضعوا مكانه البحث الذاتي واتخذوه أساسًا يشيدون عليه قواعد الأخلاق وأسس العلوم وكان من نتيجة هذه الذاتية أن اضطربت نظريات الأخلاق وشوهت الحقائق فقد كان في نظر هؤلاء الفلاسفة قبل سقراط أن يصح في نظرهم أن يقتنع الفرد بحقيقة ما دام يراها حقيقة ولو اختلف الناس معه وكان اختلافهم صوابًا وحكمة.

- وانتهت هذه الفلسفة إلى سقراط فدرسها دراسة عميقة واستخلص منها فلسفته التي تمت إلى الماضي بصلات قوية إلا أنها مغايرة له في أهم مظاهرها، بل هي حد فاصل بينه وبين الفلسفات الإنسانية العظيمة التي تأسست عليها واشتقت منها.

- كانت طريقة سقراط في نشر فلسفته أن يحاور الناس في

الطريق، ويتقدم إليهم متسائلاً متجاهلاً ثم يشعرهم بجهلهم ويدخل الشك إلى قلوبهم، وينتهي الحوار بأن يبذر في نفوسهم بذور المعرفة الصحيحة وهو في كل محاوراته لا يبتعد بهم عما يتصل في عقولهم من مسائل الحياة ذلك لأنه لم يكن يفرق بين تعاليمه الفلسفية وبين الحياة نفسها.

- وتختلف فلسفة سقراط عن فلسفة القدماء في أنها تركت التجوال فيما وراء الطبيعة وهبطت إلى الأرض تتخلل نفس الإنسان في أهم أغراضه وهو أن يعرف نفسه ويعرف الفضيلة التي شغلت من أبحاثه المحل الأول وكان يفخر بجهله المظاهر الخارجية وينسب ما يعزى إليه من تفوق عقلي إلى هذا الجهل.

- وتختلف فلسفته كذلك عن فلسفة السوفسطائيين، فقد اتخذ نفس الأساس الذي اتخذوه ليبنى عليه الحقائق إلا أنه وصل إلى نتائج مضادة تمام التضاد مع ما وصل إليه السفسطائيون.

- أي أن السفسطائيين اتخذوا من الذاتية وسيلة يهدمون بها الحقائق الخارجية واتخذها هو أي سقراط لتقرير الحقائق الخارجية.

- كان سقراط يسمو بالفكرة الفردية إلى مبدأ عام ثابت لتحقيقه

وله استقلاله عن عقول الأفراد، وكان يصل إلى هذه الحقائق معتمدًا على الاستدلال والتعريف المنطقي.

- كان سقراط ينتقل في محاوراته من بحث سلبي إلى بحث إيجابي، وكان يسأل الناس، كما يسأل الجاهل المتعطش إلى المعرفة، فإذا أفضوا إليه بما تحويه أدمغتهم من المعارف صب عليهم سيلاً من الأسئلة توقعهم بين الحيرة والارتباك وتكشف لهم عن جهلهم حقائق الأمور، وتبين لهم أن من الأشياء ما يظهر سهلاً بسيطًا لا يحتاج لبحث وهو في الواقع من أعقد الأمور وأعوصها هذا هو الجزء السلبي وإن كثيرًا من محاورات سقراط التي وصلت إلينا عن طريق أفلاطون تنتهي عند هذا الحد.

- وأثناء محاورة سقراط مع الآخرين كانت تلوح له أفكار لم يكن تخطر له على بال فهو يناقش عدة أمثلة ويلاحظ ما بينها من تباين وتشابه واتصال وانقطاع ثم ينتهي به البحث والاستدلال إلى تقرير الفكرة العامة كالعدل والسعادة وغيرهما وهذا استدلال يرمى إلى تعريف منطقي شامل جامع مانع.

- وعن فلسفة سقراط قال أرسطو: (اهتم سقراط بفحص طبيعة الفضيلة كأنها مسألة من مسائل الفلسفة ولهذه الغاية سأل نفسه ما

العدل؟ وما الإرادة؟ لأنه كان يعتقد أن الفضيلة معرفة).

ولما كانت الفكرة يصح اتخاذها مرشدًا لجميع الأعمال التي تصدر عن أجزائها، كانت الفكرة هي الكائن الحقيقي للأشياء.

- ولسقراط رأي في الأخلاق كان له أثر جليل في العالم النظري والعالم العملي، وكان يرى أن الفضيلة تنبع من المعرفة والعقل وحُسن التمييز، فالفعل الذي بلا إدراك يتناقض مع نفسه والفعل الذي باعثه الإدراك لابد أن غايته، وينبني على ذلك أن ليس هناك شر يقع مع الإدراك أو خير من غير إدراك.

- الإدراك الناقص هو الذي يهوى بالناس إلى أعماق الرذائل هذا ما قاله سقراط ومن هنا نشأ القول بأن الإنسان خيِّر بطبيعته وأنه يُساق لارتكاب الرذائل رغم إرادته ومَنْ يفعل الشر ويصدر ذنبه عن معرفة وإدراك خير من الذي يفعله وهو يجهله لأنه في هذه الحالة صنع الخير بلا معرفة أو بمعنى آخر بلا فضيلة، أما في الحالة الأولى فقد أسُيئ استعمال الفضيلة ولكنها موجودة على كل حال.

- وكانت نتيجة هذا الرأي منطقيًا هي إيجاد وحدة لجميع الفضائل، ولما كان فعل الخير هو في الواقع إدراك عقلي انتهينا إلى أن هذا الإدراك هو واحد مهما كان اتجاهًا مصوبًا إلى أي موضوع

من مواضيع الفضيلة وثمة نتيجة أخرى عملية وهي تعليم الفضيلة ما دامت معرفة وإمكان نشرها بين جميع الأفراد بالممارسة.

– وهكذا وضع سقراط الحجر الأساسي النظرية الأخلاق ولكنه لم يحاول السمو بها وكان يحاول الوصول إلى السعادة عن طريق الفضيلة، ونهاية السعادة في نظره أن يسمو فوق مطامح الحواس، وأن يتحرر من الرغبات فيرتفع إلى مصاف الآلهة وأن يثق بقوة الروح، وترى من وسيلة سقراط أنه لم تكن له مدرسة وإنما كان له تلاميذ، وقد اختلف هؤلاء الأتباع في فهم فلسفة إلى حد التناقض مع بعضهم البعض ومع سقراط نفسه ويمكن القول إن الذي أتم فلسفة سقراط وزاد عليها هو أفلاطون...

أشهر أقوال وحكم سقراط

- التربية الخلقية أهم للإنسان من خبزه وثوبه.
- لم أطمئن قط إلا وأنا في حجر أمي.
- أعظم امرأة هي التي تعلمنا كيف نحب ونحن نكره، وكيف نضحك ونحن نبكي، وكيف نصبر ونحن نتعذب.
- يوم تصبح المرأة مساوية للرجل تُمسى سيدته.
- ستة لا تفارقهم الكآبة، الحقود، والحسود، وحديث عهد بغنى، وغني يخاف الفقر، وطالب رُتبه يقصر قدره عنها، وجليس لأهل الأدب وليس منهم.
- إني أعرف شيئًا واحدًا وهو أني لا أعرف شيئًا.
- اعرف نفسك.
- أنا لست أثينيًا ولا يونانيًا، أنا مواطن عالمي.
- بكل الأحوال تزوج، لو حصلت على زوجة جيدة ستصبح سعيدًا،

ولو حصلت على زوجة سيئة ستصبح فيلسوفًا.

- ليس من الضروري أن يكون كلامي مقبول، ولكن من الضروري أن يكون صادقًا.

- العلم هو الخير والجهل هو الشر.

- إن كان ضيوفي عقلاء فعلى المائدة ما يكفيهم، وإن لم يكونوا عقلاء فعلى المائدة أكثر مما يستحقون.

- ليس العاطل مَنْ لا يؤدي عملاً فقط، ولكن العاطل أيضًا مَنْ يؤدي عملاً في وسعه أن يؤدي أفضل منه.

- رأس المودة حُسن الثناء ورأس العداوة سوء الثناء.

- إذا وليت أمرًا أو منصبًا فابعد عنك الأشرار فإن جميع عيوبهم منسوبة إليك.

- كن مع والديك كما تحب أن يكون بنوك معك.

- لا يكون الشخص حكيمًا حتى يتغلب على شهواته.

- الجاهل من تعثر بحجر مرتين.

- إذا ركلك حمار فلا تركله.

- لا شيء صعب بالنسبة للشباب.

- السعادة هي اللذة بدون ألم.
- لا نقترب من الحقيقة إلا بقدر ما نبتعد عن الدنيا.
- ينبغي للعالم أن يخاطب الجاهل مخاطبة الطبيب للمريض.
- قلة الدين، وقلة الأدب، وقلة الندم عند الخطأ، وقلة قبول العتاب، أمراض لا دواء لها.
- مَنْ صح فكره أتاه الإلهام، ومَنْ دام اجتهاده أتاه التوفيق.
- قل الحق وإن كان عليك.
- لا راحة لمن تعجل الراحة بكسله.
- قصر النظر هو الذي قاد الإنسانية إلى قتل حكمائها.
- جعل الله للإنسان لسانًا واحدًا وأذنين، كي يسمع أكثر مما يتكلم.
- إذا أردت شيئًا بقدر ما تُريد الهواء حين تكون غارقًا في الماء، فإنك ستحصل عليه.
- مَنْ يستطيع أن يستغنى عن الضروري فهو من أقوى البشر.
- إذا احتاج اللئيم، تواضع وتقرب، وإذا استغنى، تجبر وتكبر.
- شاور الجميع ثم شاور نفسك.
- إن الحكمة الحقيقية الوحيدة هي معرفة أنك لا تعرف شيئًا.

- إن الدولة تشبه أبناءها، فلا نطمع بترقية الدولة إلا بترقية أبنائها.

- بالفكر يستطيع الإنسان أن يجعل عالمه من الورد أو من الشوك.

أشهر أقوال سقراط قبل إعدامه

- حاذر عمل الشر أكثر مما تحاذر العذاب بسببه.
- عبقرية المرأة في قلبها.
- جميع أرواح البشر خالدة لكن أرواح الصالحين خالدة ومباركة.
- الرجل الصادق دائمًا طفل.
- إذا قلت للمرأة أنت جميلة فافعل ذلك همسًا لأن الشيطان إذا سمعك ردد في أذنها صدى قولك عشرات المرات.
- قلة الدين، وقلة الأدب، وقلة الندامة عند الخطأ، وقلة قبول العتاب لها أمراض لا دواء لها.
- متى أتيح للمرأة أن تتساوى مع الرجل أصبحت سيدته.
- لا فضيلة بلا معرفة.
- الحكمة لله وحده وعلى الإنسان أن يجد ليعرف، وفي استطاعته أن يكون محبًا للحكمة توافًا إلى المعرفة، باحثًا عن الحقيقة.

- العلم هو الخير والشر هو الجهل.
- النفس الخيرة يجزيها القليل من الأدب والنفس الشريرة لا ينفع فيها الأدب الكثير.
- مَنْ صح فكره أتاه الإلهام، ومَنْ دام اجتهاده أتاه التوفيق.
- الحياة بدون ابتلاء لا تستحق العيش.
- إذا احتاج اللئيم تواضع وتقرب، وإذا استغنى تجبر وتكبر.
- قصر النظر هو الذي قاد الإنسانية إلى قتل حكمائها.
- تبدأ الحكمة من التعجب.
- أقرب شيء الأجل، وأبعد شيء الأمل.
- راحة الحكماء في وجود الحق، وراحة السفهاء في وجود الباطل.
- مسكين الرجل إنه يقف حائر بين أن يتزوج أو أن يبقى عازبًا وهو في الحالتين نادم.
- قد يكون الموت أعظم نعمة على الإنسان.
- الكذب ليس شرًا بحد ذاته، لكنه يصيب الروح بالشر.
- لقد كنت رجلاً نزيهًا لذلك لم أصبح سياسيًا.
- الدعاء يجب أن يكون طلبًا للرحمة فقط، لأن الله يعرف ما هو الأفضل لنا.
- الحياة من دون اختبارات لا تستحق العيش.

أشهر ما قاله سقراط عن المرأة

كان سقراط من الفلاسفة الذين تحدثوا عن المرأة بطريقة إيجابية تحسب له وقد استخلص تلاميذه من أقواله في المرأة ما يلي:

- المرأة قلب الإنسانية والرجل عقلها.
- تبلغ المرأة بضعفها ما لا يبلغه الرجل بقوته.
- يتسع المنزل لأي عدد من الرجال ولكنه لا يتسع لامرأتين.
- المرأة تكتم الحب أربعين سنة ولا تكتم البغض ساعة واحدة.
- تقلق المرأة على المستقبل حتى تجد زوجها، ولا يقلق الرجل على المستقبل حتى يجد زوجته عندها يبدأ في القلق.
- قيل لسقراط مَنْ هي أعظم امرأة في نظرك، فأجاب: هي التي تعلمنا كيف نحب ونحن نكره، وكيف نضحك ونحن نتألم.
- لو جردنا المرأة من كل فضيلة لكفاها فخرًا أنها تمثل شرف الأمومة.
- كلما أردت السعادة تمثلت أمامي صورة امرأة حائزة على جمال

المرأة وعقل الرجل.

- المرأة كوكب يستنير به الرجل ومن غيرها يبيت الرجل في الظلام.

- إذا أردت أن تعرف رُقي الأمم فانظر إلى نسائها.

- لا شيء يرفع قدر المرأة كالعفة.

الفصل الثاني

المعرفة عند سقراط

المعرفة وأفكار سقراط

في هذا الفصل نتعرف على بعض أفكار (سقراط).

بالنسبة لسقراط فإذا لم تستطع أن تعرف الشيء تعريفًا لا يقبل التنوع فأنت إذن لا تعرف حقيقة هذا الشيء فأي شيء يفتقر إلى التعريف المطلق أو النهائي فإن سقراط يسميه Doxa أو مجرد رأي تميزًا له عن المعرفة الصحيحة التي سماها Epsiteme وتترجم هذه الكلمة الأخيرة غالبًا بمعنى «علم Science» أو «معرفة علمية والمعرفة عند سقراط ليست علمًا» بالمعنى الذي تعرفه من العلم – وهو الملاحظة الصبورة وتجميع الحقائق الجزئية وترتيبها في نظم معرفة عامة بل هي تعريف بسيط خالص أي تعريف أحادي مطلق.

وقد امتدح أرسطو سقراط على أنه افتتح مسألة التعريف واعتبر ذلك إسهامًا كبيرًا قدمه سقراط للفلسفة ففي كتابه «الميتافيزيقا» يقول أرسطو: «إن سقراط قد أغفل العالم الطبيعي وحصر دراسته في مسائل الأخلاق وفي هذا المجال بحث عن العام وكان أول من ركز تفكيره في عملية التعريف».

لكن هذا التركيز قد أودى بسقراط في اتجاهات لا معنى لها وإلى مقولات عبثية في أغلب الأحيان فالتعريف مسألة مهمة لتخليص الأفكار من الغموض والإبهام من أجل التركيز مباشرة على الموضوع الحقيقي للمناقشة وحتى يمكن لأطراف النقاش أن يتفادوا الوقوع في مصيدة الكلام عند شيئين مختلفين تمامًا كما يحدث غالبًا وكان التأكيد على أهمية التعريف عاملاً هامًا في تطوير علم المنطق لأن أكثر قضايا المنطق هي استدلال من تعريفات عامة.

بالنظر لتطور الفلسفة اليونانية فإن بحث سقراط عن تعريف أحادي مطلق لا يقبل التغير يمكن أن يفهم على أن رده ضد وجهة النظر العالمية التي عرضها الفيلسوف هيراقليطس الذي سبق سقراط وكان موضوعه الأساسي أن التغيير حدث دائم ولا مفر منه إذ لاحظ أن كل الأشياء تتغير وأن الإنسان حسب قوله لا يستطيع أن ينزل إلى النهر مرتين وهذه رؤية عميقة تمثل إسهامًا كبيرًا للفلسفة لكن شأنها شأن الحقائق الأخرى العظيمة يمكن حملها والذهاب بها بعيدًا والمبالغة في عرض نتائجها كان هيراقليطس صوفيًا معرفًا بتطابق التناقضات إذ قال ذات مرة: «إن الصعود إلى أعلى والهبوط إلى أسفل هو شيء واحد أو هو نفس الشيء» لكن عجز عن أن يأخذ هذا

في الاعتبار عندما أثبت مذهب التغير الدائم طبقًا لمذهبه الخاص بتطابق التناقضات فإنه يمكن أن يكون صحيحًا وغير صحيح فكل شيء يتغير بمعنى واحد ولكن بمعنى آخر فإنه أيضًا يظل كما هو.

نحن نعيش في عالم من الأسرار الغامضة أحدها هو سر التغير والآخر هو سر التشابه وهما حقيقتان لا يمكن الفصل بينهما فالأنهار دائمة التغير ولا يمكن أن تكون كما هي أبدًا فالماء فيها دائم الجريان والتغير وضفاف الأنهار ومساراتها تتحرك باستمرار بتأثير الفيضانات ومواسم الجفاف هذه حقائق محلوظة لا تنكر لكن بمعنى ثان رغم هذه التغييرات فإن الأنهار لها هوية باقية ولا يمكن تخطئتها فالأمازون والمسيسبي والدانوب والجانجر أنهار باقية على مدى آلاف السنين في نفس المجرى والمكان يمكن التعرف عليها بوضوح رغم التغيرات المستمرة. بنفس الطريقة يمكن القول بأن الطفل والرجل مختلفان لكن السمات الفردية تبقى صامدة بحيث يمكن التعرف عليها فكل كائن بشري يتغير باستمرار فيتخلص من الخلايا القديمة ويخلق خلايا جديدة ينمو دائمًا ويشيخ في بعض الأحيان ويصعب عليك أن تتعرف على صديق قديم لكن الملامح المألوفة باقية وتظهر واضحة عند الفحص الدقيق فالتغير دائم وكذلك التشابه والحقيقة الكلية

يمكن الوصول إليها فقط بحسبان كلا الأمرين هذا هو الإلهام النهائي الديالكتيك الهيجلي الذي سعى إلى جمع التناقضات في مركب أعلى وهذا ينعكس أيضًا فيما يسميه الفيلسوف مويس وكوهين الأستاذ بكلية نيويورك سيتي مبدأ الاستقطاب أي أن تجاهل أحد قطبي المشكلة يعني فقدان الحقيقة الكاملة.

لقد صار البحث عن تعريف بالنسبة لسقراط وأفلاطون بمثابة بحث عن «حقيقة» مطلقة أبدية غير قابلة للتغير أو التنوع تحت وأعلى أو وراء عالم هيراقليطس الدائم التدفق والمتناقض بطريقة لا فكاك منها إن تاريخ هذا البحث بصورة مصغرة هو تاريخ الفلسفة ونحن نجد أنفسنا وكأننا واقعين في متاهة ميتافيزيقية عائدين قرنًا وراء قرن خلال تعقيدات وتطورات حلزونية متزايدة إلى نفس الإجابات الست التي صاغها فلاسفة الإغريق القدماء.

إن سقراط وبحثه عن التعريف قد لعبا دورًا محوريًا في هذه المنظرة التي لا تنتهي ولكنها دفعت تلاميذه في اتجاهين متعارضين تمامًا أحدهما سار فيه أفلاطون والثاني سار فيه (أنتستتين) Antisthemes إذا تبدأ كل منهما بنفس الملاحظة وهي أن أستاذهم كما اعترف هو بنفسه لم يستطع الوصول إلى التعريف الذي سعى

إليه. لقد افترقا بغرض العثور على طرق تختلف اختلافًا جذريًا من أجل الخروج من هذه الأزمة ومنذ ذلك الحين ترك هذان الاتجاهان المتناقضان طابعهما على الفكر الفلسفي.

أدى بأحدهما إلى الشك المطلق فأنكر إمكانية الوصول إلى المعرفة أما الطريق الآخر الذي سلكه أفلاطون فقد دفعه إلى خلق عالم آخر في مكان مرتفع بعيدًا عن هذا العالم وهو عالم «الأفكار» الخالدة التي لا تتغير وسمى ذلك بالعالم الحقيقي هذا العالم عالم أفلاطون الحقيقي ملىء بأشياء غير حقيقية فارغة غير قابلة للتغير وخالدة بطريقة مريحة لقد وجد أفلاطون ملجأه في هذه الجنة الميتافيزيقية.

أفلاطون هو النموذج الأول للفكر المحافظ فقد كان يخشى التغير وكانت فلسفته تبحث في كيفية الهروب منه بهذا البحث أقام أفلاطون بناء رائعًا للفكر يغري بالتطلع والاكتشاف لكنه ملىء بتلاعب الألفاظ وبالتناقضات والقفز من الفلسفة إلى اللاهوت وبالفيوضات الصوفية والتخريفات العبثية الخلافية والرؤوس الخرافية التي تنظر إلينا بامتعاض من داخل الأركان المظلمة لإحدى كنائس العصور الوسطى الشاسعة.

ربما جاءت الهجمات الأولى على نظرية أفلاطون الخاصة بالأفكار أو الأشكال من (أنطيقون السوفسطائي) فالصور أو الأشكال الأفلاطونية هي تشخيص للمفاهيم العامة تمييزًا لها عن الأشياء الجزئية التي تجسدها وعن طريق نظرية الصور وكان أفلاطون هو أول من لفت الأنظار إلى «العموميات» Universals كما سمت فيما بعد لكن أفلاطون أخذ رؤيته الناقدة وابتعد بها حتى دخل إلى عالم العبث واللامعقول لقد زعم كما قال أرسطو عن الأشياء الجزئية توجد فقط «بالاشتراك» في الصور أو في الأفكار فالأفكار عند أفلاطون – هي وحدها «الحقيقة» أما الأشياء الجزئية فليست إلا انعكاسًا متغيرًا سريع الزوال.

يوضع هذا الرأي في عبارات محسوسة تقول إن السرير الذي تنام عليه غير حقيقي لكن فكرة السرير الخالدة الموجودة في عالم سماوي بعيدًا عنا – فهي الحقيقة الصادقة وقد رد أنطيقون على ذلك بإجابة مؤثرة فقد لاحظ أنطيقون في قصاصة من بحث مفقود «عن الحقيقة ontruth» – أن إذا دفن واحد من الناس سريرًا في الأرض وتركه هناك حتى يتحلل فإنه سوف ينبت شجرة لا سريرًا» أي أن مادة السرير كانت سابقة على صورته أو فكرته إن الخشب سوف يجدد

نفسه regenerate itself لكنه سوف يحتاج إلى أحد الحرفيين من البشر في جيل جديد لكي يأخذ الخشب ويصنع منه سريرًا جديدًا بهذا المنظور فإن الفكرة الكلية أي فكرة السرير سوف تعيش مجرد ظل ميتافيزيقي لهذا الشيء الجزئي وهكذا استطاع أنطيقون بهذه الملاحظة المادية أو المعقولة أن يقلب عالم أفلاطون رأسًا على عقب أو بالأصح أن يقيمه في الوضع الصحيح – هذا هو المستنقع Morass الميتافيزيقي الذي وقع فيه تلاميذ سقراط عندما قادهم أستاذهم إلى البحث عن تعريف أحادي مطلق.

لقد وصل سقراط بعملية البحث عن تعريف إلى حدود العبث واللامعقول ففي محاورات أفلاطون هناك فقرات حين تقرأها تحس وكأنها من بعض كوميديات مفقودة لأرسطوفانيس نجد إحداها في محاورة ثياتيتوس Theattetus حيث نجده وهو يجاهد في حل مشكلة المعرفة يقفز فجأة للحديث حول صناعة الأحذية أما الفقرة الأخرى نجدها في محاورة فيدروس Pheadrus حيث يناقش سقراط بأسلوب مشابه تجارة الخيول.

يبدأ سقراط جدله في المحاورتين بمقولة يسلم بصحتها وهي أنك لا تستطيع أن تصنع حذاء دون أن تعرف ما هو الحذاء أو ماهيته

ولا تستطيع أن تكون تاجرًا للخيول دون أن تعرف ماهية الحصان لكي تعرف ماهية الحذاء أو الحصان في سبيل العمل بصناعة الأحذية أو تجارة الخيول فهل من الضروري أن تصل إلى المستويات المستحيلة لمنطق سقراط وأن تأتي بتعريف مطلق وكامل لماهية الحذاء أو الحصان؟ هل يجب على صانع الأحذية أو تاجر الخيول أن يحصل على درجة دكتوراه الفلسفة في الميتافيزيقا؟ إن سقراط لا يطلب فقط تعريفًا كاملاً للحذاء والحصان بل – الأكثر صعوبة – أن يطلب تعريفًا كاملاً أو تامًا للمعرفة ذاتها انظر كيف يطرح سقراط هذه المسألة لثياتيتوس وهو أقل يقظة من بين الخاضعين لسقراط الموافقين معه على طول الخط في محاورة «القوانين».

سقراط: إذن فإنه (أي صانع الأحذية) لا يفهم في معرفة الأحذية إذا لم يكن يعرف المعرفة.

ثياتيتوس: لا.

سقراط: إذن فالذي يجهل المعرفة لا يفهم في ترقيع Cobblery الأحذية أو أي فن آخر.

ثياتيتوس: هذا صحيح تمامًا.

كان بإمكان أي أثيني بأن يحتج احتجاجًا واضحًا على هذا الهراء

فصانع الأحذية لا يلزمه أن يكون فيلسوفًا وأن الفيلسوف ليس بالضرورة أن يكون صانعًا ماهرًا للأحذية الواقع أن الزبون الذي يأتي بقطعة من الجلد للإسكافي ليس مهمًا كما يقول الفلاسفة – بالعموميات بل بالجزئيات فهو يريد زوجًا من الأحذية يناسب قدميه وليس تعريفًا ميتافيزيقيًا تامًا للحذاء ثم وكما نقول الآن فالقدم اليمنى ليست ذاتها هي القدم اليسرى وهكذا لا يوجد تطابق في الأحذية حتى بين الزوج الواحد مهما كانت دقة تعريف «الحذاء» أما الزبون فإنه يريد زوج حذائه الخاص أن يصنع عن طريق الاستفادة الكاملة بقطعة الجلد التي اختارها ففي كل نقطة نجد أن الجزئي Partial هو أكثر أهمية عما هو عام Universal فصانع الأحذية يتقدم على الفيلسوف في ناحية حيوية وهامة وصانع الأحذية يمكنه أن يصنع حذاء ولكن الفلاسفة لا يزالون عاجزين عن صياغة تعريف تام مطلق سواء للحذاء أو للمعرفة وطالما كانت حرفة صناعة الأحذية هي موضوع التقدير فإن صانع الأحذية هو بشكل واضح أفضل من الفيلسوف الميتافيزيقي وكذلك الأمر بالنسبة لتجارة الخيل ففي محاورة «فيدروس» يقول سقراط لم يكون سخيفًا، أن أطلب منك أن تشتري حصانًا وأن تحارب ضد الغزاة في حين أن كلامنا لا يعرف

ما هو الحصان» أي عابر سبيل وقع كان يمكنه أن يقطع الحوار عند هذه النقطة ليقول إنه إذا كان سقراط وفيدروس لا يعرفان ماهية الحصان فلابد أن مستوى ذكائهما كان منحطًا بدرجة تجعل وجودهما في الجيش غير مفيد في أي ناحية. فتجارة الخيول مثل صناعة الأحذية تقع في الجزئيات وليست في العموميات فأول شيء يسأله تاجر الخيول ما هو نوع الحصان الذي تريده أنت هل تريده للحرب؟ أم للسباق؟ للأعمال الشاقة بالمزرعة؟ أم لجر عربة نزهة لتمضية أوقات الفراغ خارج البيت؟ ثم أيضًا فإن المشتري الحويط سوف يلقى نظرة فاحصة على أسنان الحصان وسيقانه وحوافره قبل إتمام الصفقة ومن البديهي أن المشتري ليس من البله بحيث تبيع له حمارًا أو جحشًا على أنه حصان من ناحية الإدراك العام فإن أعماق العالم الميتافيزيقي تخرج مباشرة من عالم الحمقى المبلد بالغيوم فكل الناس يعرفون ما هو الحصان كل الناس ما عدا الفيلسوف.

لكن هذا النمط من القياس الخادع واستخلاص المعاني كما هو النمط الذي يستخدمه سقراط وتلاميذه للتعتيم على الديمقراطية عن طريق السخرية والاستخفاف لأن هذه الأقيسة المنطقية لها دلالات معادية للسياسة فإذا كانت هذه الأعمال الوضعية كصناعة

الأحذية أو تجارة الخيول يتعذر أدائها بنجاح دون الوصول إلى تعريفات لا سبيل إليها فكيف يمكن لعامة الناس أن توكل إليهم ممارسة فن آخر أشد تعقيدًا وهو حكم المدن؟

كان في مقدور كل تلميذ من تلاميذ سقراط أن يستنتج من ثوريات أستاذه الغامضة نتائج مغايرة بل ومناهج فلسفية مختلفة عن الآخرين لكنهم جميعًا ودون استثناء اتفقوا على شيء واحد وهو العداء للديمقراطية ولو أخذ هذا الموقف على محمل الجد لأدى هذا إلى تعطل حياة المدينة وتوقفها.

كان أنتستين هو أكبر تلاميذ سقراط سنًا إذ رفض المجتمع البشري بكل تقاليده وأعرافه فقد دفعه بحث سقراط عن التعريف الكامل إلى مذهب الشك Skepism قد يكون أول فقيه مفسرا لما كانت تسميه العصور الوسطى بمذهب الأسمية Nominatism وهو الاتجاه القائل بأن المفاهيم العامة مثل المقولات والتعريفات ما هي إلا أسماء أي تصورات عقلية لا وجود لها في الواقع مطلقًا» لكن على المستوى السياسي اتفق أنتستين مع سقراط ولم يحمل الديمقراطية سوى الازدراء يقول ديوجين لايرتس Diogemes Laertius في كتابه «حياة الفلاسفة» إن أنتستين اعتاد على أن ينصح الألينين بأن

يصوتوا على أن الحمير هي خيول.

هذا الاستهزاء الموجه لطريقة حكم المدينة الذي تختاره الأغلبية كان شيئًا عاديًا في الدوائر السقراطية والتنويع على هذا اللحن ينكشف في محاورة «فيدروس» لأفلاطون حيث يفجر سقراط نكتته السخيفة على هذا الموضوع فعند النقطة التي انقطع فيها الاقتباس الخاص بشراء حصان دون علم بماهية الحصان فإن سقراط يستطرد في كلامه حتى يقول بسخرية «لكن هذا فقط ما أعرفه عنك إن فيدروس يظن أن الحصان هو أحد الحيوانات الأليفة وأذناه هي أطول الآذان» أما فيدروس وهو ليس أبلهًا فيقاطع سقراط بقوله «هذا يدعو للسخرية يا سقراط لكن سقراط لم ينته من نكتته السخيفة فيعيد التشويش الساخر الذي نطق به أنتستين».

سقراط: لكن إذا أنا حاولت إقناعك بكل جدية أن تؤلف خطبة في مدح الحمار الذي أسميه أنا حصانًا وقلت إن هذا الحيوان هو أثمن المقتنيات في البيت وفي الحرب بحيث يمكنك أن تستخدمه للركوب في المعرفة وأنه قادر على حمل الأمتعة ونافع لأغراض كثيرة أخرى.

فيدروس: هذا يدعو للسخرية بدرجة مهولة.

تمامًا لأن الحرب ليس حصانًا ويصعب علينا أن نتخيل أن هناك

فلاحًا قد بلغ به الغباء إلى الحد الذي يجعله يشتري حمارًا على أنه حصان مهما كانت البلاغة في خطبة البيع حتى لو كان سقراط هو البائع لكن سقراط يستخدم هذا المقياس الشديد السذاجة لشن هجومه الواسع النطاق على مجلس المدينة الحاكم وخطبائه.

سقراط : فإذا كان الخطيب الذي لا يعرف كيف يفرق بين الخير والشر يقوم بإقناع دولة هي جاهلة مثله ليس عن طريق امتداح «حمار» باسم حصان إنما بامتداح الشر باسم الخير وبعد دراسة آراء الجماهير فإنه يقنعهم بعمل الشر بدلاً من الخير فأي محصول يرتجى من خطبته بعد البذرة التي غرسها».

فيدروس: لم يكن محصولاً جيدًا.

لكن المجلس و«الجماهير» هي لفظة مستهجنة في محاوراته أفلاطون عليها أن تقدر أمورًا كثيرة لا تتعلق كثيرًا بالمسائل البسيطة عن معرفة الخير والشر مسائل تافهة وهامة تتعلق بإدارة شئون المدينة أو أحيانًا مشاكل حاسمة إن الفلاسفة أو ربما بالأخص الفلاسفة يتعذر عليهم أن يميزوا بين الخير وبين الشر بوضوح كامل والمعروف حتى بين رجال اللاهوت أنهم يختلفون حول إرادة الله القلة والكثرة على السواء يتعثرون في ظلمة الحياة وتعقيداتها وأمور

البشر لن تجد أساتذة كاملين ولا يمكنها أن تجد حلولاً كاملة.

فخطب سقراط التي تعطي الغافلين والساذجين رنينًا عميقًا فإنها تنحدر إلى مستوى الهزء والسخرية فقد قصد بها التعتيم على الديمقراطية بالتهكم والاستخفاف فإذا بها تنقلب بدلاً من ذلك على سقراط وأفلاطون إنها تذكرنا بفكرة ساخرة للفيلسوف الإنجليزي هوبز في كتابه التنين Leviathan ففي لغته الفخمة في القرن السابع عشر يقول هوبز «إن حق العبث لم يخضع له أي كائن حي سوى الإنسان فقط» ثم يضيف بخبث «وأكثر الرجال خضوعًا لهذا العبث هم أولئك الذين يحترفون الفلسفة» ثم يستطرد هو إلى القول «لا يمكن أن يكون هناك شيء بهذا العبث ربما نجده في كتب الفلسفة» وعلى الصفحة التالية يتجه هوبز مباشرة إلى أولئك القائلين بأن طبيعة الشيء هي تعريفه وهذا ينطبق كليًا على سقراط فمن بين أمثلة العبث الفلسفي التي يذكرها هوبز أولئك الذين يثبتون أن «هناك أشياء عامة» وينصب هذا على أتباع أفلاطون الذين وضعوا ليس فقط «أشياء» ذات مفاهيم عامة يعي الأفكار أو الصور بل زعموا أيضًا أن هذه ليست مجرد تصورات ذهنية لخدمة أغراض التحليل والتصنيف بل هي الأشياء الوحيدة (الحقيقية) هكذا استطاع الأفلاطونيون في

تأملاتهم الدينية الساحرة أن يقبلوا المعنى البسيط الواقح للكلمات رأسا على عقب ويتلاعبون بها في عداوتهم للديمقراطية. إن نظرية الصور عند أفلاطون خرجت من بحث سقراط عن تعريفات مطلقة لكن سقراط نفسه، وطبقًا لكلام أرسطو، «لم يفصل العموميات عن الجزئيات» وأنه «كان على صواب في عدم الفصل بينهما».

على ذلك فإن سقراط هو الذي ابتدأ البحث لصيد الأوزة البرية The metaphysical wild Goosa Chase الذي تقدم به أفلاطون خطوة أبعد. فقد كانت الصور بالنسبة له هي البديل لتعريفات لم يصل إليها سقراط، أن طول وتعقد وعدم قابلية هذه المعضلة التي ارتادها سقراط للحل بصورة جوهرية يمكن أن يفهم لو رجعنا إلى مقال حول «التعريف» في دائرة المعارف الفلسفية Emcyclopedia of Philosoply يبرهن المقال على أن أبعد أكثر من ألفي عام من الخلاف الجاد والتحليل الواسع العميق لم يستطع الفلاسفة الاهتداء إلى تقرير ما هو التعريف ولا إلى تحديد أي تعريف كامل يمكن الوصول إليه هذه الخلاصة الرائعة تقدم دواء شافيًا (ترياقًا Antidot) لذلك الأثر المخدر الذي سمعنا مينو المسكين يشكو منه بعد نوبته مع الديالكتيك السلبي لسقراط – والسهوة التي يدمر بها

كل تعريف يقدمه الآخر دون أن يعطي هو أي تعريف من عنده من الملاحظات الواردة في المقال أن «مشاكل التعريف تتكرر بصورة مستمرة في المناقشات الفلسفية لكن لا توجد في المعرفة مسائل تستعصى على الحل مثل مسألة التعريف» هكذا بعد ألفين من السنين يجد السوفسطائيون المحدثون أن مشاكل التعريف ما انفكت تثير بنفس الدرجة التي نجدها في محاورات أفلاطون.

المشكلة ليست فقط في أن الأشياء دائمة التغيير وبهذا تملص من أي تعريف مطلق ولكنه أيضًا كما يعرف كل القضاة أن الملابسات قد تغير القضايا كما يقول المحامون وليس هذا فقط بل تتحدى قابلية تطبيق المبادئ التي تبدو عادة غير قابلة للاهتزاز.

والحقيقة أن كل القوانين والاقتراحات لها استثناءاتها التي لا تقتضي أبدًا على قيمة القوانين والتعميمات كمرشد للسلوك الإنساني – بأكثر مما يقضي مذهب القتل المبرر (القصاص) على القانون الذي يحرم القتل لكن هذا معناه أن الاختبارات المؤلمة التي يواجهنا بها واقع الحياة سواء كنا أناسًا عاديين أو قضاة فإن الفضيلة الحقة والإنسانية والشفقة قد تدعونا في بعض الأحيان إلى تطويع القواعد إلى حد كبير فالأفكار العامة المجردة مهما كانت قديمة

ومحترقة فإنها تثبت في بعض الأحيان عدم كفاءتها قد يكون مؤلمًا وخطيرًا أن تحدد متى يكون هذا لابد من الحفاظ على القانون لكن العدالة لابد أن تأخذ مجراها فالقانون والعدالة ليسا دائمًا هما نفس الشيء فقانون التراجيديا الإغريقية القديم وفلسفة سقراط وأفلاطون ما زالت معنا وسوف تبقيان دائمًا معنا.

لم يتخيل أفلاطون في محاوراته عن «المثالية» أو عن أسبقية الفكر المجرد وطغيان المطلق ويعترف بهذه الأزمة الأساسية إلا مرة واحدة فقط وبالتحديد فإنه تخلى عن المطلق بصورة ما فقط لكي يقدمه بصورة أخرى وهذا ما حدث في المحاورة المسماة "Politticus" السياسي أو رجل الدولة حيث يجادل أفلاطون بأن الدولة المثالية هي دولة يحكمها ملك – مطلق الإرادة بمعنى أن الملك لا يتقيد بأي شيء حتى ولو بالقانون.

ففي محاورة «رجل الدولة» يقوم أفلاطون حجة تجري على النقيض تمامًا من المثالية التي يتبناها لكن وهو يفعل هذا فإن يظهر فهمًا حادًا وعميقًا بفلسفة القانون.

إن الشيء الملفت للنظر في هذه المناسبة أن الناطق بلسان ليس سقراط لكنه «واحد من الغرباء» وضعت حجته على لسان سقراط

لظهرت كشيء غريب متنافر فالغريب يحتج بأن القرارات العادلة لا يمكن الوصول إليها بالتعريفات المجردة عن ماهية «الأفضل» أو ماهو الأكثر عدلاً فالغريب يؤكد أن في الدولة المثالية لا ينبغي أن تكون السلطة مع القانون بل مع الملك إن سبب هذا كما يشرحه الغريب هو أن القانون لا يمكنه أبدًا أن يحدد ما هو الأكثر نبلاً والأكثر عدلاً للناس جميعًا بسبب اختلاف الناس واختلاف الأفعال وحقيقة الأمر أنه لا شيء يستقر على حاله أبدًا في حياة البشر تبعًا لذلك فليس هناك سبيل لإصدار قانون بسيط يصلح لكل شيء ولكل زمان بصورة دائمة».

ثم يقول الغريب «إن ما هو بسيط بصورة مستمرة كالقانون مثلاً فإنه يكون غير قابل التطبيق على الأشياء التي ليست بسيطة أبدًا أي على الحياة الإنسانية وصراعاتها.

فالقانون المكتوب والقانون غير المكتوب والتقاليد ليست كافية بصورة كلية كما عبر عن ذلك مستر (جستس هولمز) ذات مرة بدقة متناهية حين قال: «إن الاعتبارات العامة لا تقرر أمر الحالات الخاصة» هذه هي الحجة الكلاسيكية لإلحاق القانون بتبعية ما يسمى في نظم القوانين المختلفة «الإنصاف أو مبدأ العدالة الإنسانية» إن علاج

النقص المحتوم في القانون ليس في وضع السلطة بطريقة تحكمية في يد رجل واحد كما كان أفلاطون يريد منا أن نفعل، والواقع أن محاورة أفلاطون تبلغ ذروتها باستعارة شديدة الحيوية يمكن تحويلها ضد أطروحته وهنا يتم القضاء على حجته بفعل عبقريته ككاتب.

فالغريب ينهي جدله لصالح نظام الحكم الملكي المطلق بتشبيه القانون برجل جاهل عنيد لا يسمح لأي إنسان بأن يفعل شيئًا مخالفا لأوامره أو حتى يسأل سؤالاً حتى ولو حدث حادث جديد لأحد الناس حتى لو طرأ لأحدهم شيء جديد أفضل من القاعدة التي وضعها» هذه هي الكيفية التي تصرف بها الملوك كثيرًا في العصور القديمة ويتصرف بها أمثالهم من الحكام المستبدين بمختلف أشكالهم في العصر الحديث فالقانون رغم ما يشوبه من تصور قد أثبت أن السيد الأكثر حكمة والأكثر قابلية للتطويع.

لقد وصلنا الآن إلى وضع يسمح لنا أن نفهم الرسالة المقدسة التي ادعى سقراط أن تلقاها من عرافة دلفي وكيف أوقعته هذه الرسالة المقدمة في مأزق هناك روايتان حول حكاية دلفي رواية زينوفون والرواية الأخرى أوردها أفلاطون الأولى بسيطة ومباشرة لكنها مشبعة بالتفاخر إلى حد الارتباك والتشويش أما الثانية فهي

رواية حافلة بالدهاء والسحر والروايتان تشتركان في مسألة واحدة أساسية وهي أن سقراط قد زعم أنه أعقل رجل في المدينة.

الرواية الأولى الخالية من التنميق والتزويق وروت في دفاع زينوفون أما دفاع أفلاطون فإنه محمل بكل العلاقات التي تبين أنها حكاية مستعادة من الذاكرة ومنمقة في هدوء بعد سنوات كثيرة فرواية زينوفون وهي أقل شهرة وليست بهذه الروعة الأدبية إنها أشبه بالإسكتش العادي الخالي من التفاصيل والزخرفة أي مذكرة كتبت على عجل بمثابة دفاع للرأي العام المعاصر وهي بهذا أقرب إلى الوقائع التاريخية يقول زينوفون إن سقراط أبلغ المحكمة أن تلميذه خايرفون سأل عني كاهنة دلفي في وجود عدد كبير من الناس فأجابه أبوللو بأنه لا يوجد من هو أكثر حرية أو أكثر عدلاً أو أكثر حكمة مني».

لقد ابتدأ سقراط بأنه أخبر القضاة أنه حين دخل المشرع القانوني الأسطوري (لايكورجوس Lycurgus الأسبرطي) إلى حرم معبد دلفي المقدس ذات مرة صاح صوت النبوة يقول إنه لا يعرف إن كان يسميه «إلهًا أم إنسانًا» ثم اعترف سقراط في استيحاء أن أبوللو لم يشأ أن يشبهني بأحد الآلهة لكنه قرر أنني متفوق جدًا عن بقية البشر أما رواية أفلاطون بخصوص هذه الزيارة فإنها أقل

وقاحة وأول اختلاف بين الروايتين نجده في السؤال الذي وضع للعرافة ففي رواية زينوفون يقول سقراط فقط أن خايرفون «سأل عني دلفي» وكانت الإجابة التي رأيناها أن «سقراط متفوق جدًا على بقية البشر».

لكن في محاورة «الدفاع» لأفلاطون يقول سقراط إن كاهنة دلفي قد سؤلت سؤالاً غامضًا enigenatic question وأعطت إجابة غامضة enignaticonswer أو هكذا أراد سقراط أن يتناول هذه المسألة كان السؤال هو عما إذا كان هناك شخص آخر أكثر حكمة مني وكانت الإجابة لا يوجد هو من أكثر حكمة إن رواية أفلاطون تختلف عن رواية زينوفون وغرابة تصويرها أو بما فيها من تورية ولكنها لا تختلف عن رواية زينوفون في مضمونها الحقيقي نفى أفلاطون يروي سقراط القصة باستحياء وكأنه أراد تجريد المحكمة من أسلحتها فهو يطلب من المحكمة ألا تحدث صخبًا مستخدمًا نفس الفعل الإغريقي thovubeo الذي استخدمه زينوفون في روايته فإذا كنت أبدو أمامكم مغرورًا (وكان هو كذلك طبعًا) فسقراط مغرور لأن هذا السؤال قد وجه للعرافة واللوم يقع على فايرفون الذي تجاسر على فتح هذا الكلام ثم يخاطب القضاة قائلاً تعرفون أي نوع

من الرجال هو خايرفون وأنه عديم التروي في أي شيء يتولاه هكذا ينتقل اللوم عن غرور سقراط إلى خايرفون.

هذا يتناقض بقوة مع رواية زينوفون فبعد «صخب» الاحتجاج من جانب المحكمة دافع سقراط عن التقدير الرفيع الذي أسبغته الكاهنة عليه ثم طلب إلى المحلفين ألا يصدقوا العرافة حتى في هذا الشأن دون وجود أسباب صحيحة لكنه يدعوهم إلى فحص منطوق الحرية بالتفصيل فسقراط يسأل القضاة أولاً هل هناك في علمكم من يمكن أن يكون أقل عبودية لشهواته مني؟ من يكون في هذا العالم أكثر حرية مني فأنا لا أقبل هدايا ولا أجرًا من أحد؟ من تودون بحكم العقل أن تعتبروه أكثر عدلاً، هل هناك شخص لا يرغب أن يدعوني بحكم العقل رجلاً حكيمًا؟

لا تظنون أن عملي لم يذهب هباء وأن هذا مؤكد بناء على حقيقة واقعية وهي أن كثيرًا من أبناء مدينتي الذين يجاهدون من أجل الفضيلة وكثيرًا من القادمين من الخارج يفضلون الارتباط بي أنا دون الآخرين جميعًا. لكن في رواية أفلاطون تجد سقراط يتناول امتداح الإله له على أنه دعابة مقدسة divine jest فيقول للقضاة لأنني حين سمعت هذا فكرت في نفسي ما الذي يعنيه الإله وما هو اللغز الذي

يطرحه لأنني أدرك أنني لست حكيمًا بأي درجة؟ فما الذي يقصده من الإعلان بأنني أحكم الناس؟ هنا يضع أفلاطون اللمسة الأخيرة والتي تمثل الاختلاف الأكبر عن زينوفون ألا وهو موضوع الرسالة المقدسة الذي لا يظهر مطلقًا عن زينوفون ففي رواية أفلاطون يقول سقراط إن الإله لا يمكن أن يكون كاذبًا لأنه إله ومن ثَمَّ أصبحت مهمة سقراط المقدسة أن يتجول في المدينة ليسأل أهلها إن كان بينهم رجل أحكم منه فسقراط أفلاطون يحكي للقضاة كيف وقع في المأزق وفقد شعبيته لأنه اكتشف أنه هو نفسه لا يعرف شيئًا فإن كل من سأله من الآخرين كان أقل معرفة منه بل إنهم لم يعرفوا أنهم جهلاء هكذا رغم أصوات الاستنكار الكثيرة فإن سقراط أفلاطون مثل سقراط زينوفون يعتبر نفسه بحق متفوقًا على بقية البشر.

هناك قدر من الغرور الملموس يتخفى تحت سطح هذه الحكاية الرشيقة التي يقدمها أفلاطون وليس هذا فقط بل إنها تحتوي كذلك على قدر من القسوة على حساب محاوريه إن أكثر أجزاء الحوار السقراطي إذلالاً وأشدها أثارة لغضب المتحاورين في طريق استجواب سقراط هو أن جهلهم كان يعرض على أن جهل حقيقي في حين أنهم كانوا يشعرون بأن استعراض لجهله الشخصي كان مظهريًا وادعائيًا هذه هي «المفارقة»

السقراطية الشهيرة فاللفظة الإغريقية Elromela التي اشتقت منها كلمة iromy معناها ينافق أو يظاهر بالجهل بموضوع ما dissembling ordissimutation أي أن يقول شيئًا وهو يعني شيئًا آخر كان محاوروه يشعرون بأنه خلف ستار «التهكم irony» أو تواضعه المصطنع فإن سقراط كان يضحك عليهم هذه هي القسوة الكامنة في خلفية الرواية التي رواها أفلاطون بما فيها من مزاح ودعابة الأرستقراطية الجذابة وهي شيء مميت جدًا لما فيه من سياسة Politesse.

ما الذي يدعو سقراط لأن يروي قصة عرافة دلفي في محاورة أفلاطون؟ ولماذا يقول سقراط بأن العرافة قد فرضت عليه رسالة مقدسة – تلك الرسالة التي تجعله يستوقف أهل مدينته وخاصة قادة الأثنيين ليسألهم عما تقصد إليه عرافة دلفي بقولها إنه لا يوجد من هو أفضل من سقراط في العقل والحكمة.

إن سقراط يخبر قضاته بأنه قد أصبح موضع شك في المدينة يسأله إخوانه المواطنون «ماذا أصابك يا سقراط؟ ما سر هذه الحزازات ضدك؟ «قل ما هي حتى لا تتصرف دون مشورة في قضيتك يوضح سقراط الأمر فيقول إنه اكتسب هذه السمعة السيئة لا لشيء إلا لأنه قد أصاب نوعًا من الحكمة مع أن لا يفهم تمامًا ما

هي هذه الحكمة عند هذه النقطة في شرعه يروي لنا قصة نبوءة دلفي.

وهنا يبرز سؤال محرج لم يطرح ولم تتم الإجابة عليه في محاورة «الدفاع» لأفلاطون وهو لماذا تكون شهرة إنسان بالحكمة سببًا في جلب المتاعب على صاحبها في مدينة مثل أثينا يحج إليها الفلاسفة من كل أنحاء اليونان فيستقبلون بالحفاوة وتقدم لهم الجوائز باعتبارهم مدرسين ومحاضرين شعبيين؟ كانت أثينا هي أكبر مدن العالم القديم انفتاحًا وربما على مدى العصور كلها وهي المدينة التي مدحها بريكليس باعتبارها «مدرسة هيلاس The school of Hellas» مدينة كانت أماكنها العامة كما هي حية في صفحات أفلاطون مرحًا لمناقشات فلسفية سعيدة لا تتوقف.

الإجابة كما يبدو هي أن سقراط استعمل «حكمته» الخاصة أي براعته كرجل منطق وفيلسوف من أجل غرض سياسي خاص لكي يجعل قادة المدينة جميعًا يظهرون بمظهر الجهلاء الحمقى الرسالة المقدسة التي أدعى أن تسلمها من معبد دلفي تحولت إلى رحلة ذاتية – trip – ago تمرين لتمجيد الذات بالنسبة لسقراط وتحقير لأعظم رجال المدينة المحترمين هكذا قوض سقراط صرح المدينة

Polis وشوه سمعة الرجال الذين كانت تعتمد عليهم وبث في الشباب روح الاغتراب.

هذا هو ما تقوله رواية أفلاطون فسقراط يشرح لنا ربما كما فعل في أثناء المحاكمة الحقيقية أن تحقيقه في أمر النبوءة قد أدى به إلى مسائلة الطبقات الثلاث القائدة للمواطنين في أثينا فبدأ أولاً وقبل كل شيء برجال الدولة Politikol أي الذين يشغلون أرفع المناصب في المدينة والذين يلعبون كخطباء الدور الرئيسي في المجلس ثم ذهب إلى الشعراء كما يخبرننا هو بما فيهم شعراء التراجيديا الذين لا زالت مسرحياتهم الباقية تقف بين روائع الأدب الرفيع على مستوى العالم كله وأخيرًا ذهب إلى الحرفيين في أثينا الذين كانت مصنوعاتهم من الأواني تشتهر بالجمال والروعة مما جعلها تسيطر على سوق البحر المتوسط وتضمن لإقليم أتيكا المزدحم بالسكان ما يكفيه من الطعام بقدر أكبر عما تستطيع أرضه المحدودة أن تنتج هؤلاء الحرفيون كانوا هم أيضًا الذين شيدوا بعد البارثينون Parthenon لكن سقراط وجد أنهم جميعًا جهلاء وغير أكفاء.

يعترف سقراط في محاورة «الدفاع» لأفلاطون أنه بالإضافة إلى مشاعر العداوة التي كانت تثيرها أسئلته فإن الشباب من أبناء

الأغنياء الذين كانوا يتمتعون بوقت فراغ كبير كانوا يرافقونني من تلقاء أنفسهم ويجدون متعة في سماع الناس وهم يستجوبون وكانوا يحاكونني كثيرًا ويأخذون في استجواب الآخرين وأتخيل أنهم قد وجدوا عددًا كبيرًا من الناس الذين يظنون أنهم يعرفون بعض الشيء فإذا هم لا يعرفون إلا القليل أولا يعرفون شيئًا على الإطلاق.

«يعرفون قليلاً أو لا يعرفون شيئًا» عن ماذا؟ وأي نوع من الأسئلة كان أولئك السذج المقلدون لسقراط يوجهونه لقادة الشعب الأثيني حتى يظهرونهم بمظهرالجاهل الذي لا يعرف إلا القليل أو لا يعرف شيئًا لم يخبر سقراط المحكمة بذلك بدلاً من هذا معنى في الكلام إلى أن قال «ونتيجة لهذا فإن الذين تم استجوابهم غضبوا بدلاً من أن يغضبوا من أنفسهم وأن يقولوا إن سقراط قد أصبح شخصًا مكروهًا جدًا وأن يفسد الشباب.

في محاورة «جورجياس» يخلع سقراط بواسطة أفلاطون قناع التواضع الكاذب الادعاء بأن يعرف شيئًا واحدًا هو أنه لا يعرف شيئًا في ذلك الحوار يتناول سقراط سيرة أعظم قواد أثينا الأربعة في جيله والجيل السابق عليه بازدراء شديد فهو يؤكد أنه هو نفسه أحد القلة إن لم يكن الوحيد بين رجال الدولة المخصلين الذين

أنجبتهم أثينا ولو أن سقراط حقيقة تكلم في الواقع بهذا الغرور الذي عبر عنه في جورجياس في أي مناسبة لكان بهذا كفيلاً بأن يكسبه استهجان كل من يعملون في ميدان السياسة بأثينا ما عدا قلة من ذي الأغراض الخبيثة الذين لا يتوافقون مع نظام الحكم الذاتي بأي شكل من الأشكال سواء كان ديمقراطيًا أو أوليجاركيا.

الأربعة الذين هاجمهم سقراط بازدراء في محاورة جورجياس ما عدا واحدا منهم كانوا أنفسهم من عائلات أرسطوقراطية من الأغنياء ذوي الحسب والنسب وظلوا زمنًا طويلاً يشغلون أرفع مناصب الدولة في أثينا بعد أن تم منح حق التصويب للرجال وتم إلغاء القواعد التي كانت تشترط فيمن يتولى الوظائف العامة أن يكون ذوي الأملاك والاستثناء الوحيدين الأربعة كان تيمستوكليس Themistocles إذ كان من أصل متواضع فقير. من الأربعة رجلان تعرضا لهجوم سقراط في «جورجياس» هما ثيمستوكليس وبرويكليس وكان الاثنان معبودين عند الأكثرية من عامة المواطنين hoipollat ميلتياس Miltiades وابنه كيمون Cimon كانا معبودين ضد الأوليجاركية hoioligol أي «القلة» من أفراد «الطبقات العليا» الأثرياء وبالأخص الوراثية للثروة من «طبقة النبلاء» كان هذان الزعيمان مما يمكن أن نسميه

حزب المحافظين الذي كان يفضل تقييد الانتخاب وتولي الوظائف العامة بشرط الملكية لكن كان هذان القائدان المحافظان العظيمان مخلصين للمدينة وقدما لأثينا أجل الخدمات في السلم والحرب.

كان كل واحد من هؤلاء الأربعة مصدرًا عظيمًا لفخر أثينا فقد كان ميلتياس وتيمستوكليس يرتبطان في أذهان الأثينين بأشهر معركتين في حروبهم مع الفرس معركة مارثون ومعركة سلاميس قاد ميلتياس جيشًا كبير العدد ضد جحافل جيوش الفرس بقيادة واريوس وردها على أعقابها في موقعة ماراثون 490 ق.م بعد أن وقف الغزاة على أبواب أثينا وبعد عشر سنوات حاول الفرس مرة أخرى واقتربوا من النصر بصورة مخيفة بعد أن تم اجتياح أيتكا وإجبار السكان على إخلاء أثينا ثم الاستيلاء على معبد الأكروبوليس وحرق صروحه المقدسة فإن ثيمستوكيس هو الذي أنقذ أثينا بالالتفاف حول أسطول إكسركسيس Xerxes في موقعة سلاميس 480 ق.م وبعد عقد من الزمان استطاع كيمون ابن ميلتياس أن يقضي نهائيًا على أحلام الفرس عندما سحق أسطولاً فارسيًا ثانيا ووضع الأساس لبناء الإمبراطورية الأثينية.

أما آخر الأربعة وهوبركليس فقد تولى الحكم بعد عشر سنوات

وقـاد أثينا إلـى أوج ازدهـارهـا وهـؤلاء الزعماء الأربعة العظام – بالاضافة إلى الصفات التي تميز بها عامة الشعب الأثيني – مهدوا الطريق لإقامة كل ما يرمز لأمجاد أثينا: البارثينون التي لا تزال أثاره الرائعة تثير فينا مشاعر الرهبة وكذلك التجربة الأثنية العظيمة في الديمقراطية وحرية الفكر ثم المسرح والمناظرات الفلسفية البعيدة المدى كل هذا جعل أثينا ليست فقط «مدرسة هيلاس» بل أيضًا مدرسة للإنسانية كلها منذ ذلك الحين. هذه هي المنجزات العظيمة التي كان يتجاهلها سقراط أفلاطون بفعل هوسه وغروره وتذمره في محاورة «جورجياس» إذ شبه الأربعة بصانعي الفطائر ووصفهم بـ«المنافقين» الذين يمتدحون الجماهير الجاهلة.

ويصل الهجوم إلى ذروة هازلة حين يقوم سقراط باتهام بركليس وهو أعظم واحد في الأربعة بأنه حول الأثينين إلى قوم من «الكسالى الجبناء الثرثارين المصابين بالجشع» سقراط الذي هو أكثر الثرثاريين الأثينين في زمن الرجل الذي أهمل أمور عائلته ومدينته ليشتبك في مناقشات متصلة الرجل الذي جمل الكلام حياته وأثره الباقي يتهم بريكليس بأنه هو الذي جعل الأثينين «ثرثارين» لقد تجرع سقراط السم في نهاية المطاف وضرب مثلاً رائعًا في الثبات ورباطة الجأش

لكن هل يستطيع أحد أن يتخيله هادئًا ساكنًا لو أن الأثينين قد فقدوا فجأة حبهم للكلام وتجنبوا أسئلته الشيقة في تجهم واكتئاب.

نحن لا نعلم بالطبع إذا كان سقراط التاريخي قد شن فعلاً هذا الهجوم على هؤلاء السياسيين الأربعة أم لا : لأن محاورة «جورجياس» كتبت بعد وفاته بوقت طويل حين عاد أفلاطون من منفاه الاختياري Self – imposed exile وأنشأ الأكاديمية لكن هذا الهجوم على الأربعة لا يتناقض مع ما نعرفه عن سقراط في أماكن أخرى وبالأخص وصف زينوفون لسلوكه أمام قضاته : ففي محاورات أفلاطون يتخفى تقدير سقراط الرفيع لنفسه خلف قناع «السخرية irony» لكن تحقيره لساسة أثينا في محاورة «الدفاع» لأفلاطون لا تخطئه العين وهو يذكرنا بالتحذير الموجه لسقراط في «محاورة مينو».

وفي هذه المحاورة يلتقي سقراط بأنيتوس Anytus وهو سيد ميسور الحال يعمل بدباغة الجلود وهو أيضًا أحد الزعماء السياسيين المنتمين للطبقة الوسطى أما موضوع المناقشة فهو الفضيلة وهل هناك شيء آخر؟ إذا كان يمكن تعلم الفضيلة فكيف يكون ذلك يقول أنيتوس إن الشباب يتعلمون الفضيلة في مدينتهم عن طريق الاقتداء بالمثل أو بنموذج الدور الذي وضعه لهم كبارهم وعظماء المدينة في

الماضي وكان هذا في الماضي كما هو الآن من المسلمات لكن سقراط يرفض هذه الحجة باحتقار لأنه بوضوح لا يجب أن يعترف أن المجتمع أي المدنية Polis هي في حد ذاتها معلم تغرس الفضيلة عن طريق الاقتداء بالمثل أو بالتقاليد الموروثة هنا نجد سقراط كما هو دائمًا – عدوًا للسياسة Antipoltical بمعناها الإغريقي وبالمعنى الحديث للكلمة فلكي ينقض الفكرة القائلة بأن عظماء المدنية قد ضربوا مثلاً عظيمًا في التحدي فإن سقراط يوجه هجومه إلى أربعة من رجال الدولة في أثينا بنفس الطريقة التي اتبعها في «جورجياس» ولو بدرجة أرق قليلاً فيهاجم أيضًا الأوليجاركية والديمقراطيين ويختار زعيمي الديمقراطية ثيمستوكليس وبريكليي أحدهما كان منافسًا عظيمًا لبريكليس هو الجنرال (وليس المؤرخ) ثيوكيديرس Thucydides أما الآخر فهو أريستيدس Aristides الذي كان يعد المثل الأعلى للاستقامة في العصر القديم. أرستيدس الذي احتل مكانة معروفة ويذكره الناس بأنه «ارستيدس العادل» هؤلاء الأربعة جرى الحط من أقدارهم في محاورة «مينو» كما حدث مع الآخرين في «جورجياس».

أما أفلاطون مؤلف الدراما الخالد فقد وضع على لسان أنيتوس آخر لقطة وهي عبارة عن تحذير موجه لسقراط. أو توجس غامض

بقرب وقوع مكروه يقول «أظن يا سقراط أنك فطن جدًا يحيث لا يجب أن نتكلم عن الناس بلسان السوء لو أنك تقبل نصيحتي لمرة واحدة فقط بأني أحذرك لكي تحترس» ثم ظهر أنيتوس بعد عدة سنوات في محاكمة سقراط كأبرز واحد ضمن الثلاثة الذين كانوا يمثلون الادعاء وقدر للأربعة أن يقضوا يومهم في المحكمة.

لا أريد أن أشير إلى أن سقراط قد حوكم في النهاية بسبب نقده الهدام لرجال السياسة الأثينيين فالإهانة التي وجهها إليهم لم تكن جريمة في عرف الأثينين بل كانت رياضة شعبية فشعراء الكوميديا الذين كانوا يقومون في أتيكا بدور مماثل لما تقوم به الصحافة المستقلة في عالمنا المعاصر كانوا يؤدون هذا الدور طوال الوقت بأقصى درجات الحرية والإثارة لإقناع الأثينين.

إن الإساءة الحقيقية التي ارتكبها سقراط هي تبسيطه الشديد الفاضح في المقدمات الفلسفية الساذجة التي ينطلق منها لشن هجومه على المدنية وقادتها وعلى الديمقراطية.

من الطبيعي أن يكون حاكم المدنية أو أي دولة هو «شخص يعرف One Who Knows» لكن ما الذي ينبغي عليه أن يعرفه؟ الإجابة المعقولة آنذاك كما هي الآن كالآتي: أن يكون لديه قدر كاف من

المعرفة عن الشئون الخارجية والتجارة والدفاع والأشغال العامة والمشاكل الاجتماعية لكي يقود المدنية بالحكمة والعقل ولكن بالنسبة لسقراط «فالذي يعرف» يجب أن يكون فيلسوفًا محترفًا وأن «معرفته» لابد أن تكون صورة مخصوصة من صور الخيال الميتافيزيقي.

الصيغة التي عرضها سقراط والتي تخول «لمن يعرف» الحق في أن يحكم كانت تحمل في طياتها جرثومة الملك الفيلسوف الذي صوره أفلاطون لكن سقراط أوغل بعيدًا جدًا عن أفلاطون لأن سقراط لم يستطع أن يجد أحدًا حتى بين الفلاسفة من يملك Episteme أو معرفة حقيقية بالمعنى الضيق الذي حدده للفظ.

لم يكن لدى أحد القدرة على تقديم هذه المواصفات المطلقة التي يطلبها سقراط حتى ولا هو نفسه بحسب اعترافه الذي يردده مبتهجًا لا أحد «يعرف» ولا يوجد أحد صالح للحكم.

فإلى أين وصلت المدنية بفعل هذا الأسلوب؟ لقد وقفت فوق هوة سحيقة لقد قاده أسلوبه في الجدال dialectic إلى طريق مسدود.

ما هو التصرف الصحيح والمشروع إذا وصل هذا التلاعب الفلسفي الممل – أو حيتان العقل التي تضرب في بحار عميقة مظلمة إلى درجة مدمرة عند تسلطها على شئون المدنية بمثل

ذلك الاستدلال السقراطي الشهير للفضيلة : المعرفة Knowledge equation و «المفارقة Paradox» في القول بأن لا أحد يفعل الشر مختارًا وهذا يؤدي إلى تقويض أي نظام للعدالة في مواجهة الجريمة صحيح إن الناس أحيانًا يرتكبون الجرائم لأنهم «لا يعرفون ما هو أفضل» لكن كيف يتسنى لهم أن يعرفوا معرفة أفضل في العالم الخاص المحكوم بمنطق سقراط؟ إذا كانت الفضيلة هي المعرفة والمعرفة لا سبيل إلى الوصول إليها إذن فلا أحد يستطيع أن «يعرف أي شيء أفضل» فلا يوجد مذنب وكل مجرم يمكنه أن يعيش طليقًا .

في التشريع العادي فإن الإنسان الذي يرتكب جريمة الحرق أو القتل العمد يمكنه أن يتفادى الإدانة إذا استطاع محاموه أن يثبتوا جنونه أما في نطاق تشريع سقراط فإن المجرم يمكنه أن يفلت من العقاب عن طريق الدفاع بأن الجريمة لم تكن باختياره «نتيجة» الجهل فكيف يمكن إدانة شخص بسرقة بنك إذا تمكن لص متفلسف جدًا أن يثبت طبقًا لمعايير سقراط أنه لا يعرف حتى ما هو البنك؟

في عالم يخلقه الفلاسفة المثاليون فإن بحثهم المستمر عن الكمال في العالم يشوبه النقص ويعوق محاولة الوصول إلى حلول معقولة للمعضلات التي يتصارع حولها الناس من أجل تحقيق النظام

والعدالة فالقول بأن لا أحد يفعل الخطأ باختياره يعني الافتراض مسبقًا أنه لا يعرف الصواب من الخطأ فبأي معنى من المعاني يصح لنا أن نقول إن الناس لا يعرفون الصواب من الخطأ؟ هذا يصح بمعنى واحد فقط ألا وهو أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بتعريفات للصواب والخطأ كاملة تمامًا بحيث تشمل أي حالة عارضة أو طارئة يمكن تصورها أما الشخص الذي لا يعرف حقًا أنه من الخطأ أن يحرق منزل جاره أو يسرقه ويقتله يصعب وجوده خارج مستشفى المجانين أو خارج إحدى المصحات المخصصة للمتخلفين عقليًا بدرجة ميئوس منها أن معظم المجرمين يعرفون ماذا هم فاعلون وهناك قلة منهم لا يخامرها أي شعور بالذنب وبعضهم يعترف ويعي لكي ينال العقاب حتى يتخلص من هذا الشعور.

في أغلب الأحوال يتفوق المجرم في معرفته بعالم الواقع وقد يكون أكثر جسارة وأفضل تخطيطًا من أقرانه لكن يحتقر قواعد الصواب والخطأ وليس جاهلاً بها.

بالإضافة إلى المسائل الأخلاقية الإنسانية هناك أيضًا جوانب قانونية أبسط من هذا سوف يدمرها منطق سقراط ففي أثينا وفي غيرها من المدن كان من «الخطأ» أن تخالف قانون المدينة حتى إذا لم

يكن ينطوي على أي معيار أخلاقي لمجرد أن هذا ما تفرضه ضرورات النظام والسلام في مجتمع المدينة وفي زماننا هذا فلا يجوز أن تقود سيارتك على يسار الطريق في نيويورك لأنه خطأ ومن «الخطأ» أن تقودها على اليمين في لندن. هذا هو ما يسميه فقهاء القانون «معيارًا normative» أكثر من قاعدة أخلاقية إذن الآن فإن الجهل بالقانون ليس عذرًا مقبولاً وإلا لاستحال وضع معيار لأدلة الإثبات كيف يمكن لأي إنسان أن يثبت أن رجلاً يدعى أنه «لم يكن يعرف» فعلاً.

القانون يفرض على المواطن واجبًا أساسيًا هو أن يعرف القانون فهو لا يستطيع أن يفلت من العقاب بإثبات جهله أحد الانتصارات المبكرة التي حققها العامة في نضالهم من أجل العدالة هو إجبارهم الطبقة الحاكمة من ملاك الأراضي على تدوين نصوص القانون كتابة حتى يتسنى لأي واحد منهم أن يراه ويعرف بدقة ما هو البند الذي اتهم بالخروج عليه وانتهاكه هذا النصر ثم إحرازه في أثينا قبل أن يولد سقراط بأكثر من قرن من الزمان. كانت القوانين المقترحة تجري مناقشتها في مجلس المدينة ويجري التصويت عليها كان التعليم منتشرًا وكانت القوانين في ملصقات على لوحات توازن لوحات الإعلانات في المدينة المنتشرة الآن. وفي أثينا لم تكن تحتاج

إلى محامٍ لكي تعرف القانون بهذا المعنى لم يكن بوسع أحد من الأثنيين أن يدعي الجهل بما هو «الصواب» وما هو «الخطأ» من الناحية القانونية الواقع أنه كان يستاء من إلصاق هذه التهمة به.

أما فيما يختص بالمعايير الأخلاقية الأوسع مجالاً فإن مسألة الصواب والخطأ بهذا المعنى لم تحظ في أي مدينة أخرى بما حظيت به من نقاش وجدال في أثينا وهو ما تشهد به محاورات سقراط وكذلك ساحة المسرح التراجيدي فقد كانت الصراعات الأخلاقية هي موضوعه الرئيسي كما كانت هو محور أعظم المناظرات العامة التي سجلها ثيوكديدس Thucydides وكذلك كان يفعل المستمعون الشغوفون الذين كان يشدهم السوفسطائيون وسقراط نفسه إلى المناقشات الأخلاقية.

حين كان يرتكب الأثينيون خطأ كانوا يفعلون هذا عن علم واختيار سواء كانوا أفرادًا لأنهم كانوا يظنون في إمكانهم الإفلات منه أو لأنهم كمدينة حين تواجه بأن عليها أن تختار بين الشرور فكانوا يختارون ما يحسبونه وإن كان ذلك لا يتم إلا بعد مناقشات وانقسامات محزنة أخف شرًا من الهزيمة العسكرية وضياع الإمبراطورية ومن ثَمَّ كان قرارهم بذبح أهل ميلوس عقابًا على ثورتهم ضد أثينا أثناء حرب

البلوينيز وهي «أخطر جريمة حرب» ارتكبتها أثينا التي لم يذكرها أبدًا سقراط أو أفلاطون في كل نقاشهم حول الفضيلة ربما لأنها تصور لنا أن معضلات الحياة وتعقيداتها لا يمكن حشرها في نطاق عالمهم الساذج الشديد التبسيط.

لم يواجه سقراط أبدًا عند زينونون ولا عند أفلاطون بالأسئلة التي تثيرها عقيدته المتناقضة كيف يمكن تدريب الناس على الفضيلة إذا كانوا متأكدين مسبقًا أنهم لسوف يفلتون من العقاب تبعًا لاعتقادهم أنهم لم يفعلوا الخطأ باختيارهم؟

الفصل الثالث

سقراط وفن الخطابة

سقراط وفن الخطابة

مثل كل شيء آخر في الأدب اليوناني نجد بدايات فن الخطابة عند هومر لكن هذا الفن أخذ اتجاهًا جديدًا ونقديًا عندما تحقق لدول المدن اليونانية الخاصة على نظام الحكم الذاتي سواء كان حكمًا أو ليجاركيًا أو ديمقراطيًا وكانت الدعامات الأساسية للحكم الذاتي تتشكل من المجلس الذي يجري فيه تشريع القوانين ثم محاكم المحلفين التي تقوم بتفسير هذه القوانين وتطبيقها وكان المطلوب من أعضاء الحكومة سواء أكانوا أقلية أم أكثرية أن يتعلموا كيف يتحدثون بوضوح وبطريقة مقنعة في المجلس وفي المحاكم من أجل الحفاظ على مصالحهم وكما اتسعت دائرة المشاركة نتيجة التطور نحو الديمقراطية وأصبحت بعض المهارات في الحديث والجدل ضرورة سياسية وعملية.

وثبتت قابلية التطبيق العملي للتدريب على الخطابة بما فرضته الظروف التي ظهر في ظلها أول الكتيبات التي تشرح فن الخطابة وقد سجلت الكتيبات في قصاصة بقيت من كتاب مفقود لأرسطو

واحتفظ بها شيشرون في مقالة له عن الخطابة بعنوان «بروتس» وهو الجمهوري الأرستقراطي الذي قتل قيصر. قال أرسطو إن أول مؤلفي الخطابة الإغريق هما (كوراكس Corax) و(تيسياس Tisias) اللذين وضعا كتيباتهما بعد طرد الطغاة من جزيرة صقلية في منتصف القرن الخامس ق.م فقد عاد المنفيون إلى وطنهم وأقاموا قضاياهم مطالبين باسترداد أملاكهم التي صادرها الطغاة لقد شعروا بحاجتهم الشديدة لتعلم الخطابة حتى يتسنى لهم أمر الدفاع عن حقوقهم بنجاح في القضايا التي أقاموها ضد أولئك الطغاة الذين استولوا على هذه الممتلكات المسروقة ووضعوها في حوزتهم. لقد برهن (شيشرون) على أن فن الخطابة كان وليد نظام دستوري راسخ جدًا لكن سقراط فيما كتبه أفلاطون يحتقر الخطابة ويشن عليها هجومين كاسحين بغرض تدمير هذا الفن أحدهما في محاورة «فيدروس» والآخر في محاورة «جورجياس» المحاورة الأولى من أجمل المحاورات الأفلاطونية وأكثرها سحرًا لكنها تتصاعد بعيدًا حتى تدخل في عالم التصوف الغامض في منتصف الطريق بين الشعر واللاهوت ويحدد سقراط المعرفة اللازمة للخطابة الحقيقية بدرجة لا تتوفر إلا للقلة القليلة من البشر، يقول سقراط يجب على

الخطيب أن يبدأ بتفهم طبيعة الروح وعلاقتها بالمقدس وأن يكون قد أخذ لمحة سريعة عن الصور المثالية التي توجد أعلى المناطق السمائية دون أن يراها عامة البشر وكما تقول مقدمة هذه المحاورة في طبعة ليوب Loeb «أن الحصول على هذه المعرفة هو مهمة عظيمة لن يقوم بها أحد لمجرد إقناع إخوانه بل لابد من غرض أسمى يدفع الحمية والنشاط في روح الدارس لفن الخطابة الحقيقي من أجل تحقيق الكمال الروحي في محاورة «الدفاع» أيضًا يرفض سقراط المشاركة في السياسة من أجل الكمال الروحي.

ومن ناحية أخرى ففي محاورة «جورجياس» وهي أشد محاورات أفلاطون تطرفًا وحده ينظر سقراط نظرة متدنية للخطابة كما كانت تمارس عمليًا حتى إن أحد من تلاميذه لم يحرص على أن يراه الناس مشتغلاً بها إنه يشبه فن الخطيب بطريقة صنع الفطائر ويسوي بين الخطابة والنفاق يقول سقراط لجورجياس وهو واحد من أعظم معلمي الخطابة في عصره إن الخطابة «حرفة ليست فيها شيء من الفن لكنها إظهار لروح فطنة تميل بطبيعتها للتعامل بمهارة مع البشر ثم يضيف سقراط» قائلاً: إنني ألخص مادتها في خلاصة أسميها النفاق هذه الحرفة كما أراها لها فروع كثيرة أحدها الطبخ الذي

يبدو حقيقة كفن ولكنه مجرد عادة أو مهارة. والخطابة هي فرع فن باعتبارها حلية شخصية وسفسطة.

يرى البعض أن هذا هجوم كاسح جدًا يجعلنا نخجل من أجل سقراط وهو مجرد إطلاق للأسماء وليس تحليلاً جادًا فسقراط هنا كما هو في أغلب الأحيان يتناول موضوعه من زاوية جانبية فلم تكن الخطابة كلها في المجلس أو المحاكم مجرد نفاق وضيع فيريكليس الأرستقراطي الزاهد لم يكن منافقًا أو ذا وجهين.. وكليون الديماجوجي الذي أتي بعده كان قادرًا دائمًا على توبيخ أتباعه وقد فعل ذلك مرارًا كما نعرف من ثيوكديدس. كان سقراط يحتقر التجار السوقة في المجلس ولا يعترف لهم بالقدرة على التصرف بالحكمة والعدل كما يتصرفون في أمورهم الخاصة ولم يكن هؤلاء التجار البخلاء على درجة من الفطنة بحيث يبالغون في النفاق فالإقناع ليس نفاقًا فقط والنفاق ليس دائمًا هو وسيلة الإقناع فالمقدمة غير المنطوقة لهجوم سقراط على الخطابة هي ازدراء لهامة الشعب في أثينا يظهر هذا واضحًا في «جورجياس» حين يضم شعراء التراجيديا إلى الخطباء كمحترفين للنفاق هذه النظرة المنحطة للتراجيديا الأثينية تنبع من رؤية سقراط المنحطة للجمهور فهو يصف الشعر

التراجيدي بأنه «نوع من الخطابة موجه إلى جمهور يتكون من الأطفال والنساء والرجال من الأحرار والعبيد أيضًا وهو فن لا نقبله إذ نسميه نفاقًا وتبعًا لهذه النظرية فإن أسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس كانوا ينافقون طائفة من النظارة الجهلاء.

ويختتم سقراط كلامه قائلاً: فالخطباء شأنهم شأن الشعراء يهتمون بامتداح المواطنين وإشباع غرورهم» مضحين بالصالح العام من أجل منافعهم الشخصية ثم يتصرفون إزاء مجالسهم تصرفهم مع الأطفال لو جاء مثل هذا الكلام من شخص أقل وقارًا من سقراط لجرى رفضه باعتباره ديماجوجيًا (غوغائية) معادية للديمقراطية إن أفضل رد على هذا الهراء المسموم الذي ورد في جورجياس هو كتاب «الخطابة» لأرسطو فهو يعكس وجهة النظر الإغريقية والأثينية السائدة والتي كانت تتصادم معها تعاليم سقراط وأفلاطون لقد بدأ أرسطو مباحثه في «السياسة» وفي «الأخلاق» بالتأكيد على أن المدينة الحرة والحياة المتمدنة قد دخلتا حيز الإمكان واقعيًا لأن البشر يملكون الحد الأدنى من فضيلة التمدن كما يملكون المنطق Logos القادر على التمييز بين الصواب والخطأ وبين العدالة والظلم كذلك ابتداء كتاب «الخطابة» بتأكيد مماثل على أن البشر عمومًا

يملكون من الذكاء قدرًا كافيًا يمكن التوصل إليه عن طريق الحجة القائمة على البرهان العقلي هذا الإيمان يستقر في أساس فكرة الديمقراطية فالحكومة الحرة لن يكون لها مستقبل في أي مكان يمكن أن يعامل فيه البشر على أنهم قطيع من الحيوانات هكذا وجدنا أنفسنا منذ السطور الأولى في كتاب «الخطابة» قد انتقلنا إلى عالم آخر يختلف تمام الاختلاف عن عالم سقراط وأفلاطون نتنفس فيه هواء مختلفًا فأرسطو ينظر للخطابة وهي طريقة الجدال في المحاكم نظرة إلى الديالكتيك وهي الطريقة التي يتم غرسها في المدارس الفلسفية فيبدأ أطروحته بالقول «إن الخطابة هي قرية الديالكتيك لأن كلاهما يتناول موضوعات هي بشكل ما قائمة في أعماق الوعي لدى جميع الناس وليست محصورة في نطاق علم معين ومن ثَمَّ فإن جميع الناس يشتركون فيها كل بنصيب (أي فن الخطابة والديالكتيك) فالجميع إلى حد ما يحاولون أن ينتقدوا حجة أو يؤيدونها فالناس يتجادلون وهم يحبون الجدال فيما بينهم لذلك شرع أرسطو في دراسة أساليب ممارسة الجدال في المجلس وفي المحاكم. يعترف أرسطو «طبعًا» بأن الخطابة الشعبية عرضة لإساءة الاستعمال وكأنه كان يجيب بطريقة غير مباشرة على سقراط فيقول

«إذا احتج البعض بأنه يمكن أن يسيئ استخدام موهبة الكلام أن يتسبب في ضرر كبير فإن هذا الاعتراض يمكن أن ينسحب على كل الأشياء الطيبة ويجد الأمل في الاعتقاد بأنه:

1- «الخطابة مفيدة لأن الأشياء الصادقة والعادلة تتفوق بالطبيعة على كل ما يتناقض معها.

2- «إنه من السهل عمومًا إثبات ما هو حقيقي والإقناع بما هو أفضل.

3- «إن الناس يملكون قدرة طبيعية كافية للوصول إلى الحقيقة وهم يصلون إليها فعلاً في معظم الأحوال إن صفحات التاريخ الأشد سوادًا وبعضها قريب جدًا تجعل هذا كله يبدو من قبيل التفاؤل لكنه بغير هذا الإيمان فإن الناس الطيبين لابد أن يستسلموا لليأس.

في حين كان سقراط يبحث باستمرار عن يقين مطلق في شكل تعريفات قد حازت الكمال دون أن يعثر عليها» وحيث هجر أفلاطون عالم الواقع من أجل عالم سماوي لا تتغير فيه المثل أو الصور فإن أرسطو قد دخل إلى مشكلة المعرفة من زاوية فرعية في الإدراك العام فكان أول من قام بتنظيم علم المنطق وابتكار القياس المنطقي كأداته الرئيسية لقد ميز أرسطو بين شكلين من أشكال القياس

المنطقي – القياس الديالكتيكي والقياس الخطابي كلاهما يبدأ بافتراضات يعتقد بصحتها. الديالكتيكي يبدأ بافتراضات يعتقد أنها ضرورية وصحيحة دائمًا أما الخطابي فيبدأ بافتراضات يحتمل أن تكون صحيحة ولكن ليست صحيحة دائمًا لقد أطلق أرسطو على القياس الخطابي لفظة (خطب) Jones – Scot – Libddell يعرف معنى هذه الكلمة بأنه «قياس مستنبط من مقدمات احتمالية».

والتفرقة لا تنبع من الاختلاف بين قدرات الديالكتيكية المتعلمين وبين قدرات أولئك الناس العاديين بل تنبع من طبيعة الموضوعات التي يتناولها الفريق الأخير في المجاس والمحاكم إن طبيعة القرارات المطلوب اتخاذها تفرض على المواطنين كمشرعين وكقضاة أن يبدأ جدالهم من الفروض المحتملة وليس من تعريفات مطلقة لا يمكن الوصول إليها فالمجلس تحول بأنه يصدر قرارات الخطة السياسية التي تهتم بالمستقبل ولا يمكن التنبؤ بالمستقبل إن مهمة المحاكم هي تحديد ما جرى في إحدى الحوادث التي وقعت في زمن مضى حيث يختلف الشهود في مثل هذه الأمور المراوغة حتى حكام أفلاطون من الملوك الفلاسفة لم يكونوا أكثر ثقة من المواطنين الأثنيين العاديين هنا فإن الحاكم المثالي عن سقراط – «الشخص الذي يعرف» سوف

يستحيل عليه أن يرتفع إلى مستوى الموقف.

الناس لا يتباحثون في شأن ما هو مؤكد بل يتجادلون حول ما هو ليس مؤكدا والذي تكون أحكامهم عليه مجرد تغييرات يحتمل فيها الخطأ والصواب هذا هو أفضل ترشيد يمكن العثور عليه وأرسطو يوضح ذلك في مناقشته «القياس المستنبط من مقدمات احتمالية» يقول إنه «لا يوجد في أفعال البشر فعل يقع بطريقة حتمية».

إن آراء أرسطو مضيئة ومشجعة في حين أن رأي سقراط وأفلاطون إنما يثبط الهمم ويعمد إلى تدمير الناس في قدراتهم على حكم أنفسهم.

إن احترام أرسطو لأهمية الملاحظة أو المشاهدة وعدم ثقته في المطلقات ربما يعكس حقيقته كابن لطبيب ففي عمله الفلسفي نجده يفكر كطبيب ويكشف عن خبرة طبية وهكذا في كتاب «الأخلاق النيكوماخية» يؤكد خطأ المفهوم المثالي للمعرفة فيقول أرسطو إن الطبيب لا يعالج مرضًا بل يعالج مريضًا معينًا بالذات ولكل مريض مشكلاته الخاصة به فلا يوجد مريضان متشابهان حتى لو كان المرض واحدًا.

من واجب الطبيب طبعًا أن يعرف التعريفات والقواعد العامة

اللازمة لمعالجة مختلف الأمراض لكن هذا هو مجرد البداية في فن العلاج وعن طريق الجمع بين النظرية والمشاهدة حتى صار علمًا وفنًا في بلاد الإغريق القديمة والحقيقة أنه أول فروع البحث الإغريقي التي التزمت المنهج العلمي الحقيقي بمعناه الكامل في العصر الحديث والطبيب العظيم الذي أصبح أسطورة في حياته وهو أبوقراط كان بالمعنى تجريبيًا Empriical وعمليات Proagmatic وكما يقول عنه قاموس أكسفورد للأدب الكلاسيكي إن أبحاثه الغزيرة «تكشف عن روح علمية بالإصرار على الربط بين النتيجة وضرورة الاهتمام بالملاحظة الدقيقة للوقائع الطبية».

كشأنه مع الطب كان مع القانون فإن حذر أرسطو وخوفه من التعريفات المطلقة يظهر ثانية في إسهامه العظيم في مجال القانون إذ كان أول من صاغ مفهوم الإنصاف كعنصر ضروري في أي نظام قانوني عادل حدث هذا قبل قرون مما نعرفه في القانون الأنجلو – أمريكي من أن «الإنصاف» هو (مبادئ العدالة الإنسانية، وقد تطورت محاكم القضاء الإداري في بلاط الملوك الإنجليز كإجراء تصحيحي للقانون العام. إن المشرعين ملزمين أثناء صياغتهم لأي قانون «أن يقدموا بيانًا عامًا لا يطبق على جميع القضايا بل على

معظمها «حيث» يصعب تقديم تعريف «تعريف مطلق طبعًا» نظرًا لإعداد القضايا التي لا تنتهي ولكل قضية خصوصيتها لأن الإنصاف «يطوع bends» القانون من أجل تحقيق العدالة في القضية المحددة أمام القاضي الكلمة التي استخدمها أرسطو بمعنى الإنصاف في epielkeia وهي تعني الإنصاف أو النزاهة fairness وكما حدد أرسطو معناها بصورة أوضح على أنها «روح العدالة في تعارضها مع حرفية القانون» The spirit & asopposed to the letter of law وفي كتاب «الأخلاق النيكوماخية» اعتبر الإنصاف «تصحيحًا للقانون لأن القانون معيب بسبب عموميته» كان التقسيم هو هدف سقراط كما هو في الواقع غاية كل معرفة.

التقسيم ضرورة أساسية من ضرورات القانون ولكن أرسطو يصل في نفس الفقرة إلى ملاحظة أن «هناك بعض القضايا التي يستحيل أن تصنع لها «قانونًا» وهذا لم يكن بالطبع اكتشافًا أرسطيًا فملاحظة أرسطو للحالات التي لا يصلح لها قانون إنما يعكس خبرة الشعب الأثيني على مدى قرنين وأكثر من الزمان مع محاكم المحلفين الشعبية كما كانت تسمى حيث كان يجلس المواطنون من كل الطبقات كمحلفين وقضاة.

كانت فكرة الإنصاف مضمرة في صلب القسم الذي كان يقسم عليه الديكاستز dixasts أو القضاة المحلفون judges – Juror كانوا يقسمون القسم التالي «سوف نعطي أصواتنا للقانون حيثما توجد قوانين وحيث لا يوجد قانون فإننا نصوت إلى جانب العدل حسب إحساسنا به المستقر في أعماقنا».

فالذي يقوله أرسطو عما يشوق أي قاعدة عامة من نقص طبيعي قد سبق بيانه في وقت مبكر كما رأينا عند أفلاطون في محاورة رجل الدولة Poiliticus وهي المكان الوحيد في قانون أفلاطون الذي يتخلى فيه أفلاطون كلية عن المثالية المطلقة فمن المذهل أن نسمع «الغريب» وهو الشخصية التي تتكلم بلسان «أفلاطون» يبرهن بنفس أسلوب أرسطو تقريبًا على أن القانون لا يستطيع أن يقرر ما هو «الأكثر عدلاً» لأن اختلاف البشر واختلاف أفعالهم يجعل من المستحيل وضع قاعدة واحدة بسيطة تصلح لكل شيء ولكل وقت» وكان هذا بالنسبة لأفلاطون يعد انفصالاً تامًا عن الميتافيزيقا حيث يتحرر من طغيان الصور المطلقة والتعريفات المطلقة.

وحسبما يوضح الغريب أنه في حين أن وضع القوانين هو من علوم الملك» (أي أن الملك هو الذي يصدر القوانين للمجتمع) فإنه يكون

من الناحية المثالية غير ملزم بأن يتقيد بها فالشيء الأفضل «كما يؤكد الغريب» هو ألا تكون السلطة للقانون بل للشخص الحكيم الذي ينتمي لأسرة ملكية والذي يجب أن يحكم نسخة جديدة من مذهب سقراط القائل بأن الحكم لمن يعرف وعلى بقية الشعب الطاعة وهكذا تحولت هذه النظرة للقانون المناقضة للتجريد المطلق وهي نظرة غير متوقعة من أفلاطون إلى حجة للدفاع عن الحكم المطلق باعتباره نظام الحكم المثالي لكن الخبرة البشرية قديمًا وحديثًا تثبت أن الحكم المطلق يولد الظلم وأن قادة النظم الديكتاتورية هم الذين يضعون السياسات القمعية وهذا ما تؤكده الممارسات الحقيقية لكل من ستالين وماوتس تونج.

فالملاحظة أن نتجت عنها فكرة الإنصاف وصارت طريقًا للهرب من الميتافيزيقا والخروج من الحوارات السياسية المسدودة وذلك بفضل الجمع بين عناصر مثالية وبين عناصر ما نسميه الآن التجريبية أو البراجماتية فالحل الذي توصل إليه أرسطو لم يكن يعني أن نختار إما هذا أو ذاك بل أن تختار كلاهما لكي نخفف من حدة الطرفين بالجمع بين عناصر من كليهما وكان هذا تطبيقًا لمذهب الوسطية The Doctrine of the Mean أو الطريق الوسط.

فالإنصاف ينتقل من نطاق التعريفات العامة للقانون إلى تفاصيل القضية ثم يطوع القانون لتحقيق «العدالة» بهذا فإنه يرجع بنا إلى المعيار العام المثالي الذي نبهنا إليه سقراط وأفلاطون وهو «العدالة» رغم أننا لا نستطيع تعريفها بصورة مطلقة وإن الناس يختلفون حول ذلك مرارًا بأنها تبقى «المثل الأعلى» وهو المفهوم الذي ندين به لأفلاطون.

وهو أشبه شيء بالحد الأقصى في حساب التفاضل والتكامل إذ يقدم لنا عنصرًا لا غنى عنه في التحليل المثمر للمشاكل الاجتماعية والسياسية إنه إسهام عظيم فوق أفلاطون وكان سقراط هو الذي مهد السبيل لذلك لكن أرسطو قد أضاف عنصرًا لم يكن لديه النية للاعتراف به لكنه يسير في اتجاه الديمقراطية وأضفى العزة والكرامة على الرجل العادي لقد اعترف أرسطو بأن مفهوم «العدالة» بدلاً من كونه مفهومًا لا يقوى على تحقيقه إلا القلة القليلة فقط فإنه مفهوم كامن في جذور الخبرة البشرية العامة وفي طبع الإنسان ذاته باعتباره «حيوانًا سياسيًا».

لذلك فإن القسم الذي كان يقسم عليه المحلفون على أن يحكموا بالعدل كان يعبر عن إحساسهم الفطري بالعدل وبإضافة عبارة «كما

هو مستقر في أعماقنا» فإنهم يقرون أنه على الرغم مما في طبيعتهم كبشر من نقص فهل كان الملوك أو الفلاسفة كاملين من كل نقص؟ إنهم سوف يجاهدون ما وسعهم الجهد هذا الرصيد المشترك من «فضيلة التمدين» هو الأساس الذي قامت عليه الديمقراطية الأثينية وأسلوب ممارستها وبناء عليه وضع أرسطو مصطلح «الإنصاف».

أما ديالكتيك سقراط السلبي فلو كانت المدينة قد أخذته مأخذ الجد لاستحال عليها أن تحقق الديمقراطية أو الإنصاف إن توحيد سقراط بين الفضيلة وبين المعرفة البعيدة المنال قد حرم الناس من الأمل وأنكر عليهم إمكانية أن يحكموا أنفسهم.

الفصل الرابع

نصيحة سقراط الخالدة

نصيحة سقراط

في مرة واحدة فقط نصح سقراط أحد تلاميذه بالدخول في السياسة هذه النصيحة الغريبة أعطيت ويا للغرابة إلى خارميدس عم أفلاطون الذي أصبح المساعد الرئيسي لكريتياس في حكومة الثلاثين في مذكرات زينوفون إن خارميدس كان حينئذ شابًا واعدًا وسقراط يحثه على الدخول في الحياة العامة عن طريق الاشتراك في مناظرات المجلس.

وكان خارميدس يرفض ذلك وسأل سقراط حينئذ خارميدس سؤالاً كان يمكن أن يطرح على سقراط نفسه وهو يحتج: «إذا تراجع رجل عن العمل الرسمي في الدولة رغم قدرته على أداء هذا العمل بما يفيد الدولة ذاتها ويشرفه هو شخصيًا ألا يكون من المعقول أن أحسبه جبانًا؟».

يعترف خارميدس أن يخجل من الظهور في الأماكن العامة فرد عليه سقراط أنه كثيرًا ما سمع خارميدس يقدم نصائحه الممتازة لزعماء الجماهير في أحاديثه العامة وعلى هذا يجيب خارميدس

بأن «الحديث الخاص شيء مختلف جدًا عن المناظرة المزدحمة بالمتكلمين.

لكن سقراط يزجره ثم يكشف ازدرائه العميق لمجلس أثينا ويقول لخارميدس: من هم أكثر حكمة لا يشعرونك بالخجل فهل تخجل أن تخاطب جمهورًا من البلداء وضعاف الشخصية؟».

وراء احتقار سقراط للديمقراطية الأثينية يمكن الشعور بالكبرياء فسقراط يسأل خارميدس عمن هم هؤلاء الناس الذين يجعلونك تحس بالخجل من الحديث معهم؟ ثم يصف من يمثلون عامة الناس أنهم في نظره أصحاب أعمال سوقية ممثلة في المجلس.

باعة الأقمشة أو الإسكافية أو البنائين أو الحدادين أو الزراع أو التجار» ينطق سقراط هذه الأسماء بازدراء شديد «أو باعة البضائع المحظورة في ساحة السوق الذين لا يفكرون في شيء سوى في الشراء بأرخص الأثمان والبيع بأغلى الأثمان؟.. إنك تخجل من الحديث مع أناس لم يفكروا ألبتة في المسائل العاقدة لماذا إذن يتركون أشغالهم لكي يظهروا في المجلس؟ هذا نوع من التحيز الاجتماعي مجرد طنطنة لفظية – لا يتوقع إنسان أن يسمعها من فيلسوف وتزداد الغرابة إذا عرفنا خلفيته الطبقية فسقراط لم يكن أرستقراطيًا ثريًا بل كان من الطبقة الوسطى كانت أمه تعمل قابلة وكان والده قاطع

أحجار ربما كان نحاتًا أيضًا كان الفرق بين الحرفي والفنان غائمًا وغير واضح في العصور القديمة حتى أعظم الفنانين المتميزين كانوا يعملون بأيديهم ويعتمدون على ذلك في كسب عيشهم.

فكيف كان سقراط يكسب عيشه؟ كان لسقراط زوجة وثلاثة أبناء يعولهم وعاش حتى بلغ السبعين من عمره لكن لم يظهر أبدًا أن اتخذ وظيفة أو امتهن مهنة كانت أيامه تنفق في أحاديث ترف وفراغ وكان سقراط يسخر من السوفسطائيين لأنهم كانوا يأخذون أجرًا من تلاميذهم وكان يتباهى بأنه لا يطلب أجرًا من تلاميذه فكيف يعول أسرته؟ هذا السؤال الطبيعي لا نجد له إجابة في محاورات أفلاطون ففي «الدفاع» يصف سقراط نفسه بأنه رجل فقير وقد كان بالتأكيد فقيرًا بالدرجة التي إذا قورن بأغنياء أفراد الحاشية المحيطة به والمعجبة به مثل أفلاطون لكن سقراط لم يكن مضطرًا إلى الالتحاق بعمل في وظيفة أو مهنة.

إن إجابة السؤال هي أنه كان يعيش على ميراث قليل تركه له أبوه الذي جمع ثروة كبيرة من مهنة قطع الأحجار كان دخله يبدو ضئيلاً وكانت زوجته الفقيرة إكزانيثب Xanthippe البطلة التي لم يتغنى الشعراء بسيرتها في ملحمة سقراط البطولية والتي صورت كامرأة سليطة اللسان شرسة الطباع ربما لأنها عاشت أوقاتًا صعبة

تربي أولادها على ما تحصل عليه من مال قليل لكنه كان كافيًا ليتيح لسقراط وقت فراغ ربما كان دخل سقراط أقل من دخل الحرفيين الذين كان ينظر إليهم باستعلاء هناك روايات متنوعة عن مقدار ما ورثه سقراط أول التقديرات تعثر عليه عند زينوفون في محاورة «كيف تدير فروعه» Oeconomicus.

في حديث مع صديقه الثري كريتوبولس Critobolus يسخر سقراط من نفسه قائلاً إنه الأكثر ثراء بين الأثنيين إن احتياجات سقراط قليلة جدًا وكان من أسوأ الأمور إن إكزانيثب المتعبة لم يسمح لها بالاشتراك في المحاورة.

تحداهم سقراط في إعطاء تقديرًا لمزرعته الخاصة فقال: «حسنًا لو أنني وجدت مشتريًا جيدًا فإن كل ممتلكاتي بما فيها الأثاث والمنزل سوف تباع بخمسة ميناي» ثم يقول لكرتيوبوس أما ممتلكاتك أنت فأنا متأكد أنها سوف تجلب لك أكثر من ذلك مائة مرة «هناك مصدران متأخران يقدمان تقديرًا» وهذا المبلغ أقرضه لكريتو «بفائدة» وهو الصديق القريب منه في محاورة أفلاطون التي تحمل هذا الاسم هناك تقدير مماثل لضيعة سقراط في القرن الرابع ق.م فالخطيب ليبانيوس Libanlus في دفاعه Apology يقول على لسان سقراط إنه قد ورث ثمانين مينار من أبيه ولكنه خسرها

في استثمارات خاسرة.

أوضح دليل على وضع سقراط الاجتماعي نتبينه من وضعه بالخدمة العسكرية فهو لم يحارب ضمن سلاح الفرسان مع أبناء الأرستقراطية مثل ألكيباس ولم يجند مع الفقراء في فرع المشاة المسلح تسليحًا خفيفًا أو مع جنود التجديف في الأسطول بل حارب سقراط كجندي مشاة من المسلحين بأسلحة ثقيلة. كان يفرض على الأثيني أن يحضر عدته العسكرية بنفسه فالحرفيون والتجار فقط مع أبناء الطبقة الوسطى كانوا يملكون القدرة على إحضار الدروع. يهزأ سقراط بأقرانه من طبقته الاجتماعية فالمهن والأعمال المختلفة التي نطق أسماؤها كانت هي مهن أولئك الأعضاء من أبناء الطبقة الوسطى.

ومع تحقيق الديمقراطية نالت الطبقة الوسطى مساواة سياسية فقط مع طبقة ملاك الأراضي التي جاء فيها أفلاطون وزينوفون وليست مساواة اجتماعية.

لكن حسب ما نعرف فإن أسوأ العنطزة توجد أحيانًا في الطبقة الوسطى فازدراء سقراط لطبقته لابد أنه قد رفع من قدره عند الأرستقراطيين المترفين الأغنياء الذين يصنعهم في محاورة «الدفاع» لأفلاطون بأنهم أتباعه ففي الحديث إلى خارميدس كان سقراط يعبر عن نوع من الاحتقار الذي يشعر به أحد الأرستقراط

تجاه «فئة التجار السوقة» الذين به أظهورهم في السياسة وهم من «أصول وضيعة» Lawbirth لكن كانوا أحيانًا يمتلكون ثروات أكبر كثيرًا من الأرستقراطيين. هناك قضية خاصة ترافع فيها ديموستين بعد موت سقراط بحوالي نصف قرن تكشف أن تعليقات الازدراء التي كانت تطلق على الشخص الوضيع الأصل أو وضيع المهنة في ذلك الوقت تواجه بالعقاب بناء على «قانون منع الشتائم (– bad mouthing Kakegoria».

وكان هذا القانون يغطي أنواعًا مختلفة من الكذب والافتراء في هذه القضية الخاصة التي تكلم فيها ديموستين كانت إحدى الشكاوى التي قدمت ضد إيوبليدس Eublides وهو موظف صغيرًا استهزأ بأم الشاكي لأنها كانت تكسب عيشها كبائعة للأربطة والشرائط وكانت تعمل مرضعة ولم يكن هذا العمل أقل تواضعًا من مهنة أم سقراط التي كانت تعمل قابلة وادعى الشاكي أن له الحق في أن يقاضي «أي شخص في السوق يصدر عنه أي توبيخ لأي رجل أو امرأة».

ربما كان موقف سقراط إزاء «تجار المحظورات في ساحة السوق» قد لعب دورًا في استفزاز المدعى الرئيسي ضده كان أنيتوس يعمل دباغًا ويبرو دفع «زينوفون أن سقراط قد أهانه عندما تكلم بازدراء عن مهنة أنيتوس وحايره لإصراره على تنشئة ابنه بنفس هذه المهنة

السوقية يقول زينوفون إن سقراط حين رأى أنيتوس مارًا به بعد توجيه الاتهام إليه قال «ها هو رجل يمشي مزهوًا بأنه أنجز عملاً عظيمًا وغرضًا نبيلاً بتقديمي للإعدام ولأنني أرى أن الدولة قد كرمته بمنحه أرفع المناصب في المدينة أقول كان ينبغي عليه ألا يحصر تربية ابنه في العمل بالجلود الخام» يصور أفلاطون مقابلة بين أنيتوس وسقراط في محاورة «مينو» حيث نجد أنيتوس يحذر سقراط قائلاً إنه قد يتورط في المتاعب لأنه يتكلم بلسان السوء (Kakegorein) عن رجال الدولة الأثينين وبينما كان أنيتوس يخطو خطواته غاضبًا أشار إليه سقراط بتعليق جارح هو أن أنيتوس قد شعر بالإهانة لأنه «يعتبر نفسه واحدًا منهم» أي الكلمة اليونانية Kakegorien – بمعنى يفتري – التي استعملت في محاورة «مينو» وهي صيغة الفعل من اللفظة القانونية التي طبقت على التعليقات الساخرة في ديموستين.

في محاورة تياتيتوس Theaetetus لأفلاطون نرى ازدراء سقراط ينتقل من المستوى الاجتماعي إلى المستوى الفلسفي يقدم سقراط ليقوم بتقسيم الفلاسفة إلى طبقتين ثم يوضح كيف يشعر النوع الراقي منهم نحو المؤسسات السياسية في أثينا يقول سقراط إنه يتكلم فقط عن الفلاسفة «القادة» ويتساءل «لماذا ينبغي على أي إنسان أن يتكلم عن المنحطين؟ يقول سقراط إن الطبقة الراقية من

الفلاسفة يظلون «منذ الشباب وهم يجهلون الطريق إلى المجلس» agora ولا يحسون حتى بوجوده ثم يضيف سقراط قائلاً «بل إنهم لا يعرفون أين توجد قاعة المحكمة أومجلس الشيوخ أوأي مكان عام من أماكن المجلس.. وكذلك الأمر بالنسبة للقوانين والقرارات» ثم يقول سقراط «إنهم لا يستمعون حتى إلى المناقشات التي تجري حول هذه القوانين ولا يرونها عندما تنشر».

يقلل سقراط أفلاطون من قيمة الاهتمام بالقضايا العامة باعتبارها نوعًا من الطياشة والرعونة السوقية وكذلك محاولات النوادي السياسية للوصول إلى الوظائف العامة ثم يختم سقراط بالقول أن الاجتماعات وحفلات القصف والمجون مع فتيات الكورس لا تخطر على بالهم (أي على بال فلاسفة الطبقة الراقية) أو يندمجون في هذه الأشياء حتى في الأحلام «إن سقراط يسوي بين السياسة وبين الأحلام الجنسية فالزهو والتعالي يمنع الفيلسوف من ممارسة هذه الأشياء ونحن لا نفاجأ عندما يتحدث عن الفيلسوف الحقيقي فيقول: «إنه يعيش بجسده فقط في المدينة لكن عقله يزدري هذه الأشياء كلها على أساس أنها تالفة ولا قيمة لها هنا نجد سقراط وأفلاطون مثل سقراط أرسطوفانيس يعيش ورأسه في السحاب كان سقراط يلقي الاحترام على أساس أنه رجل خارج

التقاليد monconformist لكن قلة من الناس يدركون أنه كان ثائرًا ضد المجتمع المفتوح معجبًا بالمجتمع المغلق. كان سقراط أحد هؤلاء الأثينين الذين يحتقرون الديمقراطية ويمجدون أسبرطة أول إشارة لهذا الأمر تجدها عند أرسطوفانيس في مسرحيته الكوميدية المرحة «الطيور» التي أنتجت سنة 41 ق.م عندما كان سقراط في الخامسة والخمسين من عمره لقد صوره أرسطوفايتس في صورة المعبود بالنسبة لفئة الشباب الساخطين من أبناء أثينا المشايعين لأسبرطة ومن فيض ابتكاراته البديعة صاغ الشاعر الكوميدي كلمتين يونانيتين لوصف هؤلاء الساخطين.

ففي سطر 1281 بمسرحية «الطيور» يصفهم بصفة «مجانين أسبرطة» وكأنها من الفعل Lakono mameo والذي يعني الإعجاب الجنوني بأساليب الحياة في أسبرطة وفي سطر 1283 يقدم أرسطوفانيس صياغة ثانية esokrotoun وكأنها مشتقة من فعل Socrteo أي محاكاة سقراط وفي ب. ب روجرز يصف هؤلاء الشباب بأنهم يلهون ويعربدون في صخب.

كان شعب أسبرطة يعيش حياة أسطورية بسبب ضآلة الأجور وكانوا مشهورين بسوء السمعة لبعدهم عن الأذواق الراقية في الملبس والسلوك والمظهر فكانوا يطيلون شعورهم ولا يقبلون الاستحمام

مرات كثيرة وكلمة Scytoles التي في السطر الأخير يعني العصى القصيرة أو الهراءات التي كان يحملها الأسبرطيون – معه الأثينين.

هذا الوصف الكاريكاتيري الساخر لا يبتعد كثيرًا عن الإنصاف وهذا ما نراه عند بلوتارك في ترجمته لحياة ألكيبادس فقد كان ألكيبيادس معروفًا في أثينا بالأناقة المفرطة وحسن الهندام وعندما هرب إلى أسبرطة فرارًا من حكم الإعدام بسبب محاكاته لأسرار أثينا المقدسة والسخرية منها في إحدى حفلات السكر الأرستقراطية فإنه تخلى نهائيًا عن أسلوب حياته في أثينا وتبنى طريقه الأسبرطيين في الحياة لكي يستميل ويحظى برضاهم.

كتب بلوتراك يقول «عندما رآه الأسبرطيون بشعره الطويل المنكوش يستحم بالماء البارد ويعتاد في مأكله على خبزهم الجاف وعلى أكل خبزهم الجاف في العشاء لم يصدقوا أعينهم وبلوتارك يصف ألكيبيادس بأنه «حرباءة» ويقول إنه كان يعيش طوال الوقت في أسبرطة من أجل التدريبات والتعود على بساطة الحياة وصرامة الوجد. كان أفلاطون نفسه واحدًا من الأرستقراطيين الأثينين الساخطين والمعجبين بأسبرطة والمجدين لها ثم أضاف إلى لوحة العاشقين لإسبرطة من أبناء أثينا لمسة أخرى فقد كان لدى أفلاطون موهبة الكوميديا هناك استبدال في محاورة «جورجياس»

يتفق مع الوصف الذي كتبه أرسطوفانيس نفي ذلك الحوار بعد أن يهزأ سقراط من كل رجال الدولة العظام في أثينا الأوليجاركين والديمقراطيين سواء بسواء نجده في ذروة سيل السباب والشتائم – التي سبق ذكرها – يوجد هجوم إلى بريكليس لأنه حول الأثينين إلى «عاطلين» جبناء ثرثارين حاقدين طماعين جشعين بإنشائه نظام المصروفات العامة التي تدفع نظير الخدمة في المحاكم.

عند هذه النقطة يترك أفلاطون لمحاوره كاليكلس Callicles فرصة التعليق الساخر فيقول: «أنت يا سقراط تسمع هذا الكلام من أناس دون آذان مشوهة» إن «الآذان المدقوقة batteredears» هي إشارة لما نسميه في مبارة الملاكمة أوراق القرنابيط Cauliflower ears وهي لغة عامية كان هذا يستدعى ابتسامة عابرة من الجمهور الأثيني لكنه في زمننا الآن يحتاج إلى بعض الإيضاح يقول دودز في تعليقه على هذا الحوار إنها إشارة إلى «شباب الأوليجاركيين في أواخر Dodds القرن الخامس الذين كانوا يتبنون الأذواق الأسبرطية للإعلان عن عواطفهم السياسية ومن هذه الأذواق رياضة الملاكمة إن افتتان سقراط بأسبرطة يشهد عليه كل من زينوفون وأفلاطون في اللوحات التي رسمها له وأفضل شاهد على هذا نجده في محاورة «كريتو Crito» لأفلاطون حيث يشار إلى انحياز سقراط

المسبق في الحوار الخيالي الذي يجري بين سقراط وبين قوانين أثينا المشخصة.

كان كريتو أحد تلاميذ سقراط المخلصين جدًا وقد جاء ليرى سقراط في سجنه بعد المحاكم يصرح كريتو بأنه كان يخطط هو وأصدقاؤه الآخرون لأجل تهريب سقراط من السجن فقد جمعوا أموالاً لهذا الغرض ورتبوا الأمر لكي يدفعوا رشوة لبعض الرجال المستعدين للقيام بإنقاذه من هنا، يرفض سقراط خطة الإنقاذ ويقول إنه لن يواجه الشر بالشر إنه لن يخالف القانون ولو حتى من أجل أن ينقذ نفسه من حكم بالإدانة يراه غير عادل يطلب سقراط من كريتو أن يتخيل ما يمكن أن تقوله قوانين أثينا لو جاءت إلى زنزانته وناقشت الأمر معه في هذه المحاولة الخيالية مع القوانين أثينا توضح لنا مفهوم القانون كتعاقد بين الدولة وبين المواطن الفرد،ربما يكون هذا أول ظهور لنظرية العقد الاجتماعي في الأدب العلماني فالإنجيل يتضمن عهدًا مشابهًا بين الله وبنى وإسرائيل. تحتج القوانين بأن سقراط بعد أن استفاد طوال حياته من قوانين أثينا فإنه سوف يخالف هذا العقد إذا هرب بدلاً من إطاعة حكم قانوني لمجرد أن يعتبر هذا الحكم غير عادل إن الجدال رغم ارتفاع مستواه وقيمته فإنه حاسم وقاطع هنا كما هو غالبًا في حوارات أفلاطون

لا يدفع سقراط أبدًا لمواجهة قوة الحجة المناقضة مواجهة كاملة.

إن كريتون مثل الكثير من محدثي سقراط في محاورات أفلاطون – ليس ندًا لسقراط فالتناقض الحقيقي في وضع سقراط قد جعل أفكار الباحثين منذ ذلك التاريخ مختلفة فالذي يهمنا الآن الإشارة التي تكشف بها القوانين عن عواطف سقراط التي ترتبط مسبقًا بأسبرطة فالقوانين تزعم أن سقراط كان حرًا في أن يغادر المدينة في أي وقت من حياته (لو أننا لم نوفر لك ما يرضيك أو إذا كان الاتفاق غير عادل» لكن قد اختار البقاء أما القوانين فتقول إن كان يمكنه أن يهاجر إلى أي من الدولتين اللتين تعجبه قوانينها إعجابًا كبيرًا لكنك لم تفضل لأكيدامون Lacedaemon ولاكريت Crets التي تقول عنها دائمًا إنها تحكم حكمًا ممتازًا يلاحظ بيرنت Burnet في تعليقه بأنه وضع هذه الملاحظة في محاورة «كريتو» كان يمكن أن يكون «بلا معنى إن لم يكن سقراط التاريخي قد امتدح بالفعل قوانين أسبرطة وكريت».

إن إعجاب سقراط بأسبرطة وكريت الذي مر بنا في محاورة كريتوهو شيء مجد جدًا فقد كانت أسبرطة وكريت أشد أقاليم اليونان القديم تخلفًا في النواحي الثقافية والسياسية كانت الأراضي في كلتا الدولتين يزرعها أفنان من عبيد الأرض وكان هؤلاء الأفنان يجبرون

على مواصلة (على الأقل في أسبرطة التي نعرف عنها أكثر مما نعرف عن كريت) الخضوع بقوة البوليس السري والطبقة العسكرية الحاكمة التي كانت تمارس الفصل العنصري الذي يذكر القارئ الحديث بجنوب أفريقيا. إن تفضيل سقراط لأسبرطة وكريت يتأكد في مكان آخر عند زينوفون وأفلاطون وكلاهما معجب بأسبرطة ويفضلانها على مدينتهم الأم mative City ففي المذكرات يقول سقراط : «إن الأثينيين منحطين» ويقارنهم مقارنة مجحفة بأهل أسبرطة الذين يخصهم بمديح خاص من أجل تدريبهم العسكري أما في «الجمهورية» فإن أفلاطون يوجه مديحًا على لسان سقراط لنظام كريت وأسبرطة باعتباره أفضل أشكال الحكم مفضلاً إياها على النظام الأوليجاركي الذي يصعد في المرتبة الثانية وعلى النظام الديمقراطي الذي يضعه في المرتبة الثالثة.

ونحن نعرف أن أسبرطة وربما كريت أيضًا كانت تقوم بوضع قيود على سفر المواطنين إلى الخارج كما كان يفعل الاتحاد السوفيتي والصين وكان الغرض من ذلك حينئذ لا يزال كما هو الآن الحيلولة دون وقوع ما تهاجمه بكين تحت اسم خطر «التلوث الروحي».

ونحن نجد ملامح هذا الستار الحديدي في قوانين أفلاطون حيث المتكلم بلسانه هو «الأثيني الغريب» (وهو يتكلم بآراء غريبة

جدًا على أثينا» وينحصر محاوره في شخصية كريتي وأسبرطي إن دائرة اختيار الشخصيات ضيقة ومنغلقة شأنها شأن المجتمع المغلق الذي يتفق الثلاثة جميعًا عليه وأنهم يتفقون على وجود ستار حديدي لمنع تغلغل الأفكار والزائرين الأجانب وعلى تقييد السفر إلى خارج مدنهم. ثم يقترفون إجراء تحقيق مع القلة القليلة التي يسمح لها بالسفر إلى الخارج بغرض تطهيرهم من أي تلوث فكري خطيرقبل أن يسمح لهم بالاتصال ببقية المواطنين عند عودتهم.

فالحوار بين سقراط والقوانين ينتهي سريعًا تطرح القوانين سؤالاً على سقراط تسأله فيه لماذا لم يهاجر إلى أسبرطة؟ والإجابة الصريحة المعروفة جيدًا إلى التراث القديم سوف تكون محرجة فقد كان سقراط فيلسوفًا ولم يكن الفلاسفة موضع ترحيب في أسبرطة بل كانوا يهرعون جماعات من كل أنحاء اليونان إلى أثينا ولكن أحدًا منهم لم يذهب مطلقًا إلى أسبرطة أو كريت إذ لم يكن في أي بلد منهما سوقًا للأفكار وكانتا كلاهما تنظران إلى الفلسفة نظرة شك وارتياب.

من الواضح أن فكرة الهرب ولجوء سقراط إلى أسبرطة لم تطرأ أبدًا على عقل كريتو والتلاميذ الآخرين المخصلين الذين كانوا يخططون لتهريبه يقول كريتو «حيثما نذهب فسوف تجدهم يرحبون بك بل إنه ذكر مدينة تساليا Thesaily المختلفة كملجأ حيث يقول

كريتو إن له فيها أصدقاء سوف يهتمون بك ويمنحوك الحماية ولكنهم لم يذكروا أبدًا المكانين اللذين كان يعجب بهما كثيرًا – أسبرطة أو كريت. كثير من الأثنيين المشايعين لأسبرطة كانوا أحيانًا يتطلعون إلى اللجوء إلى أسبرطة فزينوفون وهو أحد تلاميذ سقراط قضى بقية حياته هناك بعد نفيه من أثينا. ألكيبياوس كما نعرف لجأ إلى هناك فترة من الوقت لكن كان هؤلاء يجدون الترحيب باعتبارهم رصيدًا عسكريًا في كفاح أسبرطة ضد أثينا، لقد خدم زينوفون الأسبرطيين كجندي مرتزق واستقبله ألكيبادس بالأحضان باعتباره خائنًا لوطنه لكن سقراط كان فيلسوفًا وهذا هو الفارق فنحن لم نسمع أبدًا بوجود فيلسوف في دولة أسبرطة أوكريت. لقد هرب أفلاطون بعد إدانة سقراط وسافر كثيرًا وزار مصر وقد انعكس إعجابه بنظامها الطبقي في محاورتي «القانون وكريتياس» لكن ليس هناك ذكر لقيامه بأي زيارة إلى أسبرطة أو كريت.

في النهاية عاد أفلاطون من منفاه الاختياري إلى وطنه أثينا فأنشأ الأكاديمية وقضى الأربعين عامًا الباقية من حياته هناك يعلم فلسفة مناقضة للديمقراطية دون أن يتدخل له أحد لكنه لم يقل كلمة واحدة تقديرًا للحرية التي توفرت له في أثينا ربما كان من السهل علينا أن نرى السبب الذي كان يجعل بعض ملاك الأراضي

من الأرستقراطيين في أثينا يعجبون بأسبرطة ويمجدونها فالطبقة الوسطى من الحرفيين والتجار التي لعبت دورًا نشطًا في تاريخ أثينا كانت محرومة من حقوق المواطنة في أسبرطة كانوا Pertolkol أي مجرد «سكان حول» أسبرطة لهم حقوق محدودة وأوضاع اجتماعية متدنية وقد كلفهم هذا ثمنًا ثقافيًا باهظًا لأن الديكتاتورية العسكرية كانت تريد خنق نهضة الطبقة الوسطى والإبقاء على خضوع أغلبية عبيد الأرض. كانت أسبرطة دولة تحكمها أقلية عسكرية وكان أفراد هذه الطبقة الحاكمة يعيشون حياة شاقة صارمة في ثكنات عسكرية وفي تدريب عسكري منظم ويتناولون وجبات طعامهم معًا في ميز مشترك كجنود في الخدمة وكان تعليمهم محدودًا.

لم يكن في أسبرطة مسرحًا ولم يوجد بها شعراء تراجيديون يركزون بفكرهم على غوامض الحياة وأسرارها ولم يوجد بها شعراء كوميديون يتجاسرون على السخرية من المشاهير كانت الوسيتين عسكرية وإن شاعر أسبرطة الغنائي الوحيد الكيمان Alcman كان على ما يبدو يونانيا من الجزء الأسيوي أما أشهر شعراء أسبرطة وهو ترتايوس Tyriacus فقد كان قائدًا عسكريًا وإحدى القصاصات الباقية من قصائده عبارة عن أوامر لترتيبات تكتيكية في محاولة عمل حصار.

أما بالنسبة للفلسفة فقد كانت أسبرطة خالية تمامًا من الفلاسفة، وكذلك كانت كريت فلو حاول سقراط مثلاً أن يطرح أسئلته الفلسفية في أسبرطة لحكم عليه بالسجن أو بالطرد إن فلسفة الأسبرطيين قد تم تلخيصها بعد قرون فيما يقوله الشاعر تنيسون:

لم يكن لهم أن ينكروا في الأسباب

لم يكن لهم سوى أن يحملوا وأن يموتوا

فالعداء للفكر من جانب الأسبرطيين كان نكتة مفضلة في الكوميديا الأثينية ربما يسأل بعض الأثينين كيف يمكن أي فيلسوف أن يقع في حب مدينة معادية للفلسفة. يحاول سقراط أن يواجه هذا النقد عن طريق النكتة وذلك في محاورة «بروتاجوراس» فيعلن أن الأسبرطيين هم حقيقة ما يمكن أن نسميهم فلاسفة الحجرة.

إن سقراط لا ينكر أن أسبرطة مجتمع مغلق لكن يدافع عن هذا بقوله إن ذلك لا يعني أن الأسبرطيين يكرهون الفلاسفة بل العكس كما يقول سقراط إن الأسبرطيين يغلقون أبوابهم في وجه الأفكار ومعلمي الفلسفة لأنهم لا يريدون أن يكثف العالم» الخارجي كيف يكافئونهم بأسلوب رفيع (فتفوق العسكرية الأسبرطية كما يقول سقراط لا يرجع إلى تدريبهم العنيف الأسطوري ونظامهم الصارم ولكن يرجع

إلى نوع من الإيمان للفلسفة asecvet diddiction to Philosoy يؤكد سقراط أن «الفلسفة لها جذور قديمة ووفيرة في كريت وأسبرطة أكثر من أي جزء من أجزاء اليونان وأن السوفسطائيين (تستعمل الكلمة هنا بمعنى محبوب) موجودون بأعداد كبيرة في هذه المناطق هذا طبعًا كلام لا معنى له فالفلسفة الإغريقية ازدهرت أولاً في مدن آسيا الصغرى التي أسسها الإغريق الأيونيون Ionian وكذلك كانت أثينا ذاتها أما الأسبرطيون فكانوا من الدوريان Dorians كان أهل أسبرطة وأهل كريت طبقًا لقول سقراط يتظاهرون بالجهل حتى لا يكتشف أحد ذلك يتم بدافع الحكمة (Sophia بمعنى الفلسفة) حتى إنهم تفوقوا على بقية الإغريق.. أنهم يفضلون أن يظن الناس أن تفوقهم راجع إلى القتال والشجاعة متصورين أن اكتشاف السبب الحقيقي سوف يدفع الآخرين إلى ممارسة هذه الحكمة ويمضى سقراط إلى القول بأنهم هكذا حفظوا سرهم جيدًا حتى أنهم خدموا أتباعهم من عبدة مذهب أسبرطة في مدننا والنتيجة كما يقول تذكرنا بالبديل المماثل مع كاليكلس في محاورة «جورجياس» هي أن البعض قطعت آذانهم عن طريق تقليدهم ثم يمضون في التدريبات العضلية ويرتدون عباءات صغيرة جريئة وكأن بهذا صار الأسبرطيون سادة الإغريق، يقدم سقراط شرحًا ذكيًا للستار الحديدي في أسبرطة

فيقول إن الأسبراطيين عندما يريدون اللجوء بحرية إلى رجالهم الحكماء وحين يتعبون من المقابلات السرية معهم فإنهم يطردون المقيمين الأجانب سواء كانوا من المتعاطفين مع أساليب الحياة الأسبرطية أو لا ثم يتحدثون مع السوفسطائيين غير المعروفين للأجانب يعلق تايلور A–E–Taylor وهو أحد زعماء هذا القرن وأعظم الباحثين المخلصين في تراث أفلاطون يعلق على الفقرة فيقول: «ينبغي ألا يقال إن هذا العرض كله الذي قدمه سقراط عن أسبرطة وكريت وهما أقل مجتمعات هيلامس اهتمامًا بالفكر كان مجرد فكاهة غاضبة.

عندما تحدث سقراط عن طرد الأجانب كان يشير إلى زينالاسيا Xenelasia وهو قانون طرد الأجانب الذي يشرق معجم ليدل سكوت للغة اليونانية (وهو طبقة قديمة من قاموس ليدل سكون جوزًا بأن تصرف أسبرطي غريب فقد كان الإغريق بحارة وتجار ومكتشفون وضيافة الغرباء كانت فضيلة عندهم أما الشك فيهم فهو سمة من سمات المتوحشين مثل أهل جزيرة سيكولوبس Cyclops فالمدن الإغريقية خصوصًا أثينا كانت مفتوحة للرجال والأفكار في هذا كانت أسبرطة وكريت شيئًا استثنائيًا وكان هذا معروفًا جدًا في أثينا.

فهرس المحتويات

تقديم 5

الفصل الأول: نبذة عن حياة سقراط وأشهر أقواله 9

فلسفة سقراط 16

أشهر أقوال وحكم سقراط 21

أشهر أقوال سقراط قبل إعدامه 25

أشهر ما قاله سقراط عن المرأة 27

الفصل الثاني: المعرفة عند سقراط 29

الفصل الثالث: سقراط وفن الخطابة 71

الفصل الرابع: نصيحة سقراط الخالدة 89

2018/1862
978-977 - 736 - 223 - 8